

الباب الرابع

كتاب التفتيح في الأدب

١ - أبو الحسن الجرجاني

١ - إن للرجل الذي نتحدث عنه في هذا الفصل فضلا على علوم اللغة العربية يجب أن يعرفه طلاب الأدب والبيان .

ويكفي في تقدير فضله أن نشير إلى أنه أستاذ عبد القاهر الجرجاني صاحب "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" . وسيرى القارئ في درس هذه الشخصية ما لم يكن ينتظره من درس شخصيات الفقهاء .

فأبو الحسن هذا قاض من كبار القضاة عند الشافعية، ولكنه بالرغم مما يحيط بوظيفة القضاء من قيود الرزاة وأغلال الوقار : رجلٌ طليق العقل ، حتى الإحساس ، حر الوجدان يلقي إلى فطرته القياد فيما يعمل وما يقول . وأي خسارة كانت تُرزء بها الآداب العربية لو توقر هذا الرجل وترهب وألقى بنفسه في تيار الجمود ! وأي خطر كان يحقد بالقضاء لو أصم هذا القاضي مشاعره، وأمات ذوقه، ودفن إحساسه، وأغمض عينيه عما في هذا العالم من فنون السحر، وضروب الفتون !

أفتحسب النضاة بنجوة عما تعرض له النفس الانسانية من ظلمات الفتن وعواصف الأهواء ؟ إن أول صفات القاضي فيما أعتقد أن يكون "إنسانا" له في حياته ما يخضع له من مطامع العقل ، وأمانى النفس ، وحاجات الفؤاد . وإلا فكيف يحكم بين الناس وهو لا يحس بما تدن له النفس الانسانية من نزوات المشاعر، وهفوات العقول ؟

٢ - ولد أبو الحسن علي بن عبد العزيز في مدينة جرجان سنة ٢٩٠ للهجرة . وجرجان هذه مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، كما ذكر ياقوت . وقد خرج منها عدد من الأدباء

(١) هكذا يقول ياقوت في معجم الأدباء ص ٢٤٩ ج ٥ ، ولكنه يقول في ص ٣ ج ٧ : إن عبد القاهر ليس له أستاذ سوى محمد بن الحسين ابن أخت أبي علي الفارسي ، وكذلك قال السيوطي في بقية الوعاة ص ٣١٠

والعلماء والفقهاء والمحدثين . وكانت اعهد من عُرفت بهم من كبار الباحثين مشهورة بالصناعة المتينة ، والفواكه الكثيرة : فكان فيها الإبريسم الجيد الذي لا يستحيل صبغه ، والذي كان يحمل الى جميع الآفاق ، وكان بها كثير من النخل والزيتون ، والجوز والرمان ، وكان بها ما شاء القناص من الأجادل والزرارير ، والطباء واليعافير . وكانت فوق هذا كله مشهورة بالخمير ، وفيها يقول ابن خريم ، أو الأفيشر اليربوعي — تردد في ذلك صاحب معجم البلدان — :

وصهباء جرجانية لم يطف بها	حنيف ولم ينفر بها ساعةٍ قِدرُ
ولم يشهد القس المهيم نارها	طروقا ولم يحضر على طبخها حَبر
أتانى بها يحيى وقد نمت نومة	وقد لاحت الشعرى وقد جَنَعَ النسر
فقلت أصطبَحها أو لغيري فأسقها	فأنا بعد الشيب ويحك والخمر
تعففت عنها في العصور التي مضت	فكيف التصابي بعد ما كلاً ^(١) العمر
إذا المرء وفي الأربعين ولم يكن	له دون ما يأتى حياءً ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذي أتى	وإن جرَّ أسباب الحياة له الدهر

قال ياقوت : وكان أهل الكوفة يقولون : من لم يرو هذه الأبيات فإنه ناقص المروءة^(٢) .

ونرى أن لوفرة ما كان يجرجان من الفواكه ولشهرتها بالخمير تأثيراً فيما كان لأهلها من رقة الحس ، ودقة الذوق . وفي ظلال هذه المدينة المفتنة في تنسيق المزارع والمصانع نشأ أبو الحسن الذي برع من تقدمه من الكاتين في أساليب البيان .

٣ — ولقد ظلت جرجان أميرة لديه طول حياته وكان الصاحب بن عباد فيما قال يقسم له بها من إقباله وإكرامه أكثر مما يتلقاه به في سائر البلاد .

قال : وقد استعفينه يوماً من فرط تحفي به وتواضعه لي فأنشدني :

أكرم أخاك بأرض مولده وأمدّه من فعلك الحسن

(١) كلاً العمر : انتهى الى آخره وأقصاه . (٢) ورد حديث هذه الأبيات قبل ياقوت في الأمالي .

فالعز مطلوب وملتمس وأعره ما نيل في الوطن

ثم قال : قد فرغت من هذا المعنى في العينية . يريد قوله :

وشيدت مجدى بين قومي فلم أقل ألا ليت قومي يعلمون صنيعى

قال : والأصل فيه قوله تعالى : ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ . ورغبة الرجل في أن يكرم في وطنه وبين أهله من الأمانى الانسانية التي تحدث بها الشعراء في مختلف الأجيال .

قال الثعالبي : "وكان في صباه خلف الخضر في قطع عرض الأرض وتدوين بلاد العراق والشام وغيرها وأقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم علماً ، وفي الكمال عالماً . ثم عرج على حضرة الصاحب وألقى بها عصا المسافر فاشتد اختصاصه به ، وحل منه محلاً بعيداً في رفته ... وتقلد قضاء جرجان من يده . ثم تصرفت به أحوال في حياة الصاحب وبعد وفاته بين الولاية والمظلة . وأفضى محله الى قضاء القضاة بالرى فلم يعزله عنه إلا موته رحمه الله^(٢) . وكانت وفاته بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة ٣٩٢ — وحمل تابوته الى جرجان فدفن بها . وحضر جنازته الوزير القاسم بن على وأبو الفضل العارض راجلين . فيما ذكر ياقوت^(٣) .

٤ — ألف أبو الحسن الجرجاني في الفقه والأدب والتاريخ . أما تأليفه في الفقه فلم يصلنا منه شيء . وقد جاء في طبقات الشافعية أنه صنف كتاباً في الوكالة فيه أربعة آلاف مسألة . ولو وصل إلينا هذا الكتاب لعرفنا كيف استطاع هذا القاضي الأديب أن يخدم التشريع . وأما تأليفه في التاريخ فلم يُعرف منه إلا كتاب تهذيب التاريخ وهو كتاب وصفه الثعالبي بأنه (تاريخ في بلاغة الألفاظ وصحة الروايات وحسن التصرف في الانتقادات) وقد ضاع هذا الكتاب ولكن الثعالبي حفظ لنا منه فصلين اثنين يمكن أن نعرف منهما منحى هذا الرجل في دراسة التاريخ :

(١) ص ٢٥٢ ج ٥ معجم الأدباء . (٢) ص ٢٣٨ ج ٢ بتيمة (٣) ص ٢٤٩ ج ٥

(٤) ص ٢٤٢ ج ٣ بتيمة .

فهو يبين في الفصل الأول أن من غرضه أن يكشف عن مغازي رسول الله وحروبه ، وعن سراياه وبعوثه ، ومتى قارب ولان ، وفي أي وقت جاهر وكشف - ويبين في الفصل الثاني أنه يرمي بكتابه الى غرض ديني وغرض دنيوي : فيبين من الوجهة الدينية كيف طمس الله معالم الشرك ، وأوضح معارف الحق . ويترك من الوجهة الدنيوية أثرا يذكر به عند صاحب ابن عباد ... وهذا الاتجاه يدل على أن هذا الرجل كان يستخدم التاريخ في نشر الدعوة الاسلامية . وأستخدام التاريخ في الأغراض الدينية والسياسية يحمل المؤرخ على مكاره كثيرة ينجو منها من يحاول أن يجعل التاريخ صورة صادقة للأمم والشعوب . وقد يكون للصاحب بن عباد مثلاً ميلٌ خاص الى بعض الأحزاب الاسلامية . ولهذا أثره المحتوم في كتاب يوضع بنيته وإرشاده . وتلك خطة قد تكون نبيلة باعتبار ما ترمى اليه : فطالما آعزت الأمم بما قد يصور به ماضيها من شتى التهاويل . ولكنها خطة خطيرة على التاريخ .

أما تأليفه في الأدب فقد بقى لنا منه "كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه" وستعود اليه . وأما آثاره الأدبية فلم يبق منها إلا طائفة من الشعر المختار هي عدتنا في تصوير نفس ذلك القاضي الأديب .

هـ - كانت نفس القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني نفساً غالية : فلقد ترك لنا في شعره صورة لنفسه الأبية العزيرة ، التي حرمت عليه طيبات الحياة : إيثارا للعزة والأنفة والكرامة ، وصونا للعرض من الدنس ، وإبعادا للرؤءة عن مواطن الابتذال . وسيرى القارئ حين نقدم له صورة تلك النفس الغالية ، الغالية . ولو شئت لكررتها ثلاثاً . سيرى فيها عزاءً له إن كان من الذين وقفت نفوسهم الأبية في سبيل ما يشتهون من بسطة الرزق ، وصولاً الى الجاه . ومن ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فينقل ما نكتب عن هذه النفس الى من خلعوا نفوسهم عند أبواب المطاعم ، وأقبلوا على مصارع الفضل مهطعين ؟ لقد عزت نفس قاضي القضاة وأسرفت في التصوّن ، إن كان في التصوّن إسراف ، وما زالت به تصدّه عن مواطن الشبهات ومظان الرّيب والظنون حتى زينت له العزلة والآنفراد . وشعره في هذا المعنى مثال من

الأمثلة العليا التي يعتز بها كبار النفوس . تليسمع أهل العلم كيف يصف نفسه ذلك العزيز الأنوف :

يقولون لي فيك انقباض وانما
أرى الناس من دانا همو هان عندهم
وما زلت منحازا بعرضي جانبا
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى
وما كل برق لاح لي يستفزني
ولم أقض حق العلم ان كان كلبا
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
أشقى به غرسا وأجنيه ذلة
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا
وفي هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :
على مهجتي تجني الحوادث والدمر
كأنني ألافى كل يوم ينوبني
فان لم يكن عند الزمان سوى الذي
وقالوا توصل بالخضوع الى الغنى
وبيني وبين المال بابان حرما
إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه
إذا قدموا بالخير قدمت دونهم

رأوا رجلا عن موقف الذل أحجبا
ومن أكرمه عزة النفس أكرما
من الذم أعتد الصيانة مغنا
ولكن نفس الحر تحتمل الظما
ولا كل أهل الأرض أرضاء منعا
بدا طمع صيرته لي سُلما
لأخدم من لا قيت لكن لأخدما
إذن فأتباع الجهل قد كان أحزما
ولو عظموه في النفوس لعظما
حياه بالأطاع حتى تجهما

فأما أصطباري فهو ممتنع وعمر
بذنب وما ذنبى سوى أنني حر
أضيق به ذرعا فعندى له الصبر
وما علموا أن الخضوع هو الفقر
على الغنى : نفسى الأبية والدمر
مواقف خير من وقوفى بها العسر
بنفس فقير كل أخلاقه وفر

في هاتين الكلمتين صورة لتلك النفس المعذبة التي قضى عليها "فضل بالشقوة والحرمان .
وأشرف ما وصف به ذلك القاضى حظه من العزة تصويره للطيبات تُعرض عليه عرضا
فيأبأها إيثاره للصون وحرصه على الجلال . يتمثل هذا في قوله :

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى وإمکن نفس الحرّ تحتل الظما
وقوله :

إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه موافق خير من وقوفى بها العسر
وقوله :

وبنى وبين المال بابان حرّما على الغنى : نفسى الأبية والدهر
ويرحم الله من يعانى ثورة النفس ، وقسوة الزمان !

٦ -- وما أحب أن أترك هذه الناحية من أبى الحسن الجرجاني قبل أن أقف القارئ على لون آخر من ألوان تلك النفس ، فقد رأى كيف يشور على زينة الحياة الدنيا سخطا على ما يصحبها من مواقف المهوان . فلينظر كيف يعتذر من أنقباضه عن أخويه ، وكيف يلمح برفق ولطف الى ما طوى عنه إباؤه من أسباب النعيم ، وكيف أنس بالوحدة والوحشة هربا من مواقع الظنون ، وكيف جعل نفوره من العالم سحبة فطر عليها منذ قضى الله أن يلقى به فى ظلمات هذا الوجود ، وذلك حيث يقول :

أيا معهد الأحباب ذكّرهم عهدى	ودم لى وإن دام البعاد على الود
ولى خلّق لا أستطيع فراقه	يفوتنى حظى ويمنعنى رشدى
نفور عن الإخوان من غير ريبة	يعدّ جفاءً والوفاء لهم وكدى
غذيت به طفلا فان رمت هجره	تأبى وأغرّتنى به ألفة المهد
كما ألفت كفا كما البذل والندى	فأعيا كما أن تمنعا كف مستجدى
على أننى أقضى الحقوق بنيتى	وأبلغ أقصى غاية القرب فى بعدى
ويخدمهم قلبى وودى ومنطقى	وأبلغ فى رعى الذمام لهم جهدى
فإن أنما لم تقبلا لى عذرة	وألزمتانى فيه أكثر من وجدى
فقلوا لطبى أن يزول فانه	يرى لكما حق الموالى على العبد

٧ - كان القاضي أبو الحسن الجرجاني من المغرمين بالتغريد على أفنان الجمال .
 وشعره في وصف الملاحه ذو أفانين وشجون . فقد نراه يترنم بمظاهر الحسن ، ويتغنى بما
 فضح الشباب من أسرار الصباحة . كقوله - في الخدّ المورّد والطرف الكحيل - :

أثر على خدّي من وردك أودع في يقطفه من خدك
 ارحم قضيب البان وأرقق به قد خفت أن ينقذ من قدك
 وقل لعينيك بنفسى هما يخففان السقم عن عبدك

وقوله - في مغازلة النديم - :

أفدى الذى قال وفي كفه مثل الذى أشرب من فيه
 الورد قد أينع في وجنتي قلت في باللثم يحنيه

وقوله - في فتنة الألفاظ - :

من ذا الغزال الفاتن الطرف الكامل البهجة والطرف
 ما بال عينيه وألحاظه دائبة تعمل في حثي
 وأها لذاك الورد في خده لو لم يكن ممتنع القطف
 أشكو الى قلبك يا سيدي ما يشتكى قلبي من طرفي

وقوله - في اختلاس التقبيل - :

وغنج عينيك وما أودعت أجفانها قلب شج وامي
 ما خلق الرحمن تفاحتي خديك إلا لفم العاشق
 لكنني أمتنع منها فما حظي إلا خلسة السارق

وقوله - في القسم يحنود الجمال - :

لا وجفون يغضها العدل عن وجنات تذيبها القبل
 ومهجة للهوى معرضة تعبت فيها القادود والمقل
 ما غاب من غاب عن ذراك وان أخرج ميقات يومه الأجل

وهذه القطع التي اخترناها من شعره في الأوصاف الحسية تمثله شره الخواس . وله في هذه المعاني أشعار طريفة يقضى العُرف الاجتماعي بأن لا تنشر في مثل هذا الكتاب فلنطوها عن القارئ طاعة للتقاليد . وإحساس هذا القاضي بالجمال جعله يخلق الأسباب ليفصح عما يعنى نفسه من أغلال الوجد الدفين . ولننظر كيف يتحدّث عن سحر العيون وهو يشكو الزمان إذ يقول :

مَنْ عاذرى من زمن ظالم	ليس بمستحي ولا راحم
تفعل بالأحرار أحداثه	فعل الهوى بالدفن الهائم
كأنما أصبح يرميهمو	عن جفن مولاي أبي القاسم

وفي تصيّد أسباب الغزل وموجبات التشبيب يقول في تغذية حبيب نال من دمه مبضع الطبيب :

يا ليت عيني تحملت ألمك	بل ليت نفسي تقسمت سقمك
وليت كف الطبيب إذ فصدت	عرقك أجرت من ناظري دمك
أعمرته صبح وجنتيك كما	تعيّره إن لثمت من لثتك
طرفك أمضى من حد مبضعه	فألحظ به العرق وأرتجز ألمك

٨ - وقد يلهو هذا القاضي الأديب عما في الجمال من نعيم الخواس ، ويعود الى بكاء ما ذهب من أنسه في أيامه السوالف ، ولياليه الخوالى . فيذكرنا بلوعة الشريف الرضى الذى كاد ينفرد برقة الحنين . ولننظر كيف يذوب روحه وهو يناجى النسيم :

يا نسيم الجنوب بالله بلغ	ما يقول المتيم المستهم
قل لأحبابه فداكم فؤاد	ليس يسلو ومقلة لا تنام

وكيف يقول في خطاب الديار، ديار الأنس المفقود :

يا ديار السرور لا زال ييكنى	بك فى مضحك الرياض غمام
رب عيش صحبته فيك غض	وجفون الخطوب عنا نيام

في ليال كأنهن أمان من زمان كأنه أحلام
وكان الأوقات فيها كؤوس دائرات وأنسهن مدام
زمن مسعدٌ وإلفٌ وصولٌ ومنى تستلذها الأوهام
كل أنس ولذة وسرور قبل لقاكمو على حرام

وقد أطلق الشاعر خياله في هذه الأبيات فاضحت معانيه كأنها خيال في خيال . أليس
يذكر أن عيشه الغض كان :

في ليال كأنهن أمان من زمان كأنه أحلام

ولكن من ذا الذي ينكر جمال هذا الخيال ؟ أو من ذا الذي لا يروقه نوم جفون
الخطوب ؟

ومن جيد الشعر قوله في الحنين الى ليالى بغداد :

أراجعك تلك الليالى كمهدا الى الوصل أم لا يرتجى لى رجوعها
وصحبة أقوام لبست لفقدهم ثياب حداد يستجده خليعها
إذا لاح لى من نحو بغداد بارق تجافت جنوبي وأسطير هجوعها
وإن أخلفتها الغاديات رعودها تكلف تصديق الغمام دموعها
يسقى جانبي بغداد كل غمامة يحاكي دموع المستهام هموعها
معاهد من غزلان لانس تحالفت لواظها أن لا يداوى صريعها
بها تسكن النفس النفور ويفتدى بآنس من قلب المقيم نزعها
يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بجبات القلوب ربوعها
فكل ليالى عيشها زمن الصبا وكل فصول الدهر فيها ربيعها
وما زلت طوع الحادثات تقودنى على حكامها مستكرها فأطيعها

راجع هذا الشعر أيها القارئ وقلب النظر في شيا ذلك الروح الحزين . فسترى تلك
اللوعة الدفينة وذلك الوجد الدخيل يرجعان الى الكلف بمظاهر الحسن ، والظما الى معاهد

تلك الظباء التي تحالفت لحاظها أن لا يداوى لها صريع، أو يبرأ منها جريح، أو يُبكي في ظلالها
قتيل . وما أضيع الدمع المسفوح فوق أفنان الجمال ! .

وما أحب أن يغفل القارئ عن رقة الشوق في هذين البيتين يصف بهما الشاعر معاهد
تلك الظباء :

بها تسكن النفس النفور ويقتدى بآنس من قلب المقيم نزعها
يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بحبات القلوب ربوعها^(١)

والمعجب في هذا الشعر أن تُصوّر نفس المحب في غربته ونواه وهي تأنس بديار
الأحباب فوق ما يأنس المقيم ! أهذا حق ؟ أهذا مما يشهد به الوجدان ؟ قد يكون ذلك .
وغيرى عنده الخبر اليقين ! .

ولكن أين أنس الظاعن من نعيم المقيم ؟ وأين روح الذكرى من نشوة الأصطباح
بوجوه الملاح ؟ ومن يدرى لعل من أنس بهم هذا الغريب أعانهم غربة النوى على نسيان
المهود !

رويدكم لا تسبقوا بقطيعتي صروف الليالي إن في الدهر كافيا
أفي الحق أنى قد قضيت ديونكم وأن ديوني باقيات كما هيأ
فوالأسفى حتام أرعى مضيعا وآمن خوانا وأذكر ناسيا
وما زال أحببني يسيئون عشرتي ويحفونني حتى عذرت الأعدايا

(١) ما نقلناه من شعر الجرجاني بحمد القارئ في أخباره بالنبذة — ج ٢ — ومعجم الأدباء — ج ٥ —

٢ - كتاب الوساطة

١ - «الوساطة بين المتنبي وخصومه» كما سماه صاحب وفيات الأعيان، أو «الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقد الشعر» كما سماه صاحب كشف الظنون : هو كتاب في النقد لأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني . يقع في ٣٦١ صفحة بالقطع الكبير طبعه وصححه وشرح بعض ألفاظه حضرة أحمد عارف الزين من أدباء صيدا في سنة ١٣٣١ هجرية . تقلا عن نسختين مخطوطتين إحداهما بمصر وأخرها بالعراق . ولم تسلم هذه الطبعة مع ما بذل فيها من الجهد من مظاهر النقص والتحريف . أحسن الله لناشرها الجزاء .

٢ - ذكر الثعالبي أنه لما عمل الصاحب بن عباد رسالته المعروفة في إظهار مساوى المتنبي عمل القاضي أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ^(١) .

أما المؤلف فيذكر أنه رأى أهل الأدب في المتنبي فئتين : فئة تطنب في تقرظه وتناول من ينقصه بالاحتقار والتجهيل ، وفئة تجتهد في إخفاء فضائله وإظهار معاييه . وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه ، وأنه رأى من البر بالآداب - وهي أرحام لأبنائها - أن يقول كلمة الحق في الفصل بين المتنبي وخصومه المترفين . ويقول في الحرص على الأواصر الأدبية : « وما من حفظ دمه أن يسفك بأولى ممن رعى حريمه أن يهتك . ولا حرمة أولى بالعناية وأحق بالحماية وأجدر أن يبذل الكريم دونها عرضة ويمتن في إعزازها ماله ونفسه من حرمة العلم الذي هو رونق وجهه ، ووقاية قدره ، ومانع اسمه ، ومطية ذكوه . وبحسب عظم مزيتته ، وعلو مرتبته ، يعظم حق التشارك فيه . وكما تجب حياطته تجب حياطة المتصل به وبسببه . وما عقوق الوالد البر ، وقطيعة الأخ المشفق ، بأشنع ذكرا ، ولا أقبح سميا من عقوق من ناسبك إلى أكرم آبائك ، وشاركك في أغفر أنسابك ، وقاسمك في أزين أوصافك ، ومث اليك بما هو حظك من الشرف وذريعتك إلى الفخر » ^(٢) .

وهذا الحرص على بنوة العلم وأخوة الأدب لا يحمل القاضى الجرجاني على التعصب المطلق . وإنما يزين له أن يحوطه بالعدل والانصاف فيقول في ذلك :

”وكما ليس من شرط صلة رحمك أن تحيف لها على الحق أو تميل في نصرها عن القصد فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف ، أو تخرج في بابه الى الإسراف . بل تتصرف على حكم العدل ككيف صرفك ، وتقف على رسمه كيف وقفك . فتتصف تارة وتعتذر أخرى ، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهدا لك اذا أنكرت . وتقيم الاستسلام للجهة اذا قامت محتجا عنك اذا خالفت . فانه لا حال أشد استعطافا للقلوب المنحرفة ، وأكثر استمالة للنفوس المشمثة ، من توقفك عند الشبهة اذا عرضت ، واسترسالك للجهة اذا فهرت^(١)“ .

وأخوة الأدب هذه عرفت قبل هذا القاضى الأديب في شعر أبي تمام وديك الجن وعلى ابن الجهم والبحترى وعلى بن محمد الكوفى . وللقارئ أن يرجع الى ما قيل فيها من جيد الشعر فى الجزء الثالث من زهر الآداب ليرى كيف تأثر هذا الكاتب المبدع بما أطال النظر فيه من دقائق الشعر البليغ .

٣ - وضع القاضى الجرجاني لكتاب الوساطة مقدمة طويلة تكلم فيها عن أغلاط الشعراء فى الجاهلية وعن تأثير الطباع والأمكنة فى رقة الشعر وجفافه . وانتقل الى الكلام عن أبي تمام والبحترى وجريروأبي نواس فذكر ما لهم من المحاسن والعيوب .

وساقه هذا الى بحث الاستعارة والجناس والتصحيف والتقسيم . ثم أخذ فى الحديث عن المتنبي فذكر السخيف والمعقد من شعره وتكلم عن تخلصه ومطالعه واعتذاره وفلسفته وسرقاته الشعرية وما أنكر العلماء عليه وما قيل فى الاعتذار عنه . وقد جرته هذه الأبحاث الى الكلام عن التشبيه واختلاف الناس فى التشبيهات ، وتفاوت الشعراء فى صوغ اللفظ والمعنى واختلافهم فى أخذ الألفاظ والمعانى الى غير ذلك مما كان يوجب الأئس بالاستطراد عند المتقدمين .

ونريد في هذا الفصل أن ندرس مع القارئ بعض النظريات الأساسية لصاحب الوساطة وأن نتبين معه ما فيها من القوة أو الضعف وأن نكشف عنها ما قد يلابسها أحيانا من الغموض . راجين أن يكون في هذه المراجعة فائدة لمن تعينهم دراسة الآداب .

٤ — انفرد الجرجاني، أو كاد، بالشك في سلامة الشعر الجاهلي من الضعف والخن . فقد كانت جمهرة الباحثين ترى أن شعراء الجاهلية أعز من أن تؤخذ عليهم هفوة أو تحسب عليهم سقطات . وكان من النحاة من يعنى نفسه بتصويب الجاهليين والمخضرمين والأمويين حين يجد الناقد في شعرهم ما يذهب بقيمته من شنيع الأخطاء، وقبيح الأغلاط . ولكن الجرجاني يرى أن الدواوين الجاهلية لا تسلم فيها قصيدة من بيت أو أكثر يمكن القدح فيه : إما في لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه وإعراجه ويقول .

« ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة ومستزلة ومردودة منفية . لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم وقى الظنة عنهم . فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام » .

وهو يستنكر تسكين الفعل من غير موجب في قول امرئ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب^(٢) إنما من الله ولا واغل^(٣)

وإسقاط النون لغير إضافة ظاهرة في قوله :

لها منتان^(٤) خطانا كما أكب على ساعديه النمر

وتسكين الفعل بغير عامل في قول لبيد :

تراك أمكنة اذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

(١) الوساطة ص ١٢ - ١٥ (٢) يقال احتقب الإثم اذا اكتسبه كأنه شئ محسوس حله (مصباح) .

(٣) الواغل المستتر — وغل في الشجر وغولا توارى فيه ، ودخل على القوم واغلا ، وقصده هنا غير مستتر .

(٤) الخطاة : المكتنزة من كل شئ .

وقول الأسدى :

كما نزعها وقد مزقت واتسع الحرق على الواقع

وقول الآخر :

تأبى قضاة أن تعرف لكم نسباً وابننا نزار فأنتم بيضة البلا
وحذف النون في قول طرفة : قد رفع الفخ فإذا تحذرى

ورفع ما يجب نصبه في قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحاً أو مجلف
وخفض ما يجب رفعه في قول امرئ القيس :

كأن ثبيراً من عرّانين^(١) وبله كبير أناس في بجاد^(٢) مزمل^(٣)

وقد أطل الجرجاني في سرد الأمثلة وفيما ذكرناه كفاية . ثم أشار الى أنه تصفح ما تكلفه النحويون لشعراء الجاهلية من الاحتجاج اذا أمكن تارة بطلب التخفيف عند توالى الحركات ومرة بالإتباع والمجاورة وتغيير الرواية اذا ضاقت الحجة، وتثبت ما راموه في ذلك من المرامى البعيدة وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة التى يشهد القلب بان الباعث عليها شدة إعظام المتقدم والكلف بنصرة ما سبق اليه الاعتقاد وألفته النفس .

٥ — ونحن لانحب أن نكتفى بما أشار اليه الجرجاني من تعسف المناخين عن شعراء الجاهلية ومن قاربه من المخضمين والأمويين فقد لا تغنى هذه الإشارة . وانما نذكر ما قالوه في توجيه قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحاً أو مجلف

فانهم يذكرون أنه رفع "مجلف" بعد نصب "مسحاً" تبعاً للمعنى لأن المراد أنه لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف — ومثله قول الهذلى — وهو من شواهد المفصل — :

(١) جمع عرّان وهو الأنف . وعرّانين الويل : أول المطر . (٢) البجاد : كساء مخطط تلبسه العرب .

(٣) مزمل : أى ملثف فى ثوبه . وكان يحب رفعه .

على أطرقا باليات الخيام إلا الثمام وإلا العصي^(١)
 بنصب الثمام لأنه استثناء من موجب ورفع العصي حملا على المعنى. وكذلك قول الآخر:
 غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف والنمر
 رفع النمر على توهم رفع العبيطات لأنه إذا أحلتها الطعنة فقد حلت هي، إلى آخر ما يتأول
 النحاة !!

تأمل هذا أيها القارئ، وصل نفسك : أكان هؤلاء الشعراء يفكرون حقا في أنهم نصبوا
 الاسم الأول على الاستثناء ورفعوا الثاني وفقا للمعنى ؟ أكان الهذلي والفرزدق يحسبان حساب
 النحاة في مثل ذلك التأويل ؟ لا شيء من ذلك وإنما أتعب النحاة أنفسهم كلفا بنصرة ما سبق
 إليه الاعتقاد وألفته النفس، كما يقول أبو الحسن الجرجاني . أو هو لحن صريح : فإنتا نرتاب
 في سلامة الأعراب من اللحن والفاط ونرى أنهم قد يلحنون كما يلحن المولدون وأن من الخطأ
 إهمال القياس اتباعا لما يؤثر عنهم من الشذوذ... وهذا المذهب في استقراء أغلاط القدماء
 خير من التورط في النفع عنهم بما لا يغني ولا يفيد . فقد كان الفراء يذكر أن من العرب
 من يقول في " أنظر " أنظور - وينشد لبعض الأعراب :

الله يعلم أنا في تلفتنا يوم الفراق إلى جيراننا صور
 وأنتى حيث ما يثنى الهوى بصرى من حيث ما سلكوا أرنو فانظور^(٢)

وهذا لحن لا ينبغي أن يتحمل له الصواب . فإن ديباجة هذا الشعر تبعد أن يكون قائله
 من قبيلة مهجورة تسيع هذا التعبير .

٦ - وقد تكلم الجرجاني عن تأثير المكان والطبع في رقة الشعر وجفافه وهو يرى أن
 للبادية أثرا في خشونة الشعر وقوة أسرته وصلابة معجمه . وأن للحاضرة فضلا على رقة الشعر

(١) راجع الفصل ص ٨ (٢) ويجب أن نذكر أن الشعر الجاهل والأموي كان يجري على قواعد من
 التحول تأخذ صبغة نهائية في التحديد والترتيب ، كما اتفق ذلك في العصر العباسي ، فأغلاط الجاهليين والأمويين ليست
 أغلاطا بالقياس إلى لغتهم هم ، وإنما هي أغلاط بالإضافة إلى اللغة التي حددت قواعدها النحويون .
 (٣) أنظر الصاحي ص ١٣

وعذوبته وسلامته من الوعورة والجفاء! ومن هنا كان شعر عدى وهو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان : لملازمة عدى الحاضرة وبعده عن جلالة البدو وخشونة الأعراب^(١). وقد يكون من البر بالأدب أن نذكر في تأييد هذه النظرية قطعة من رائية المنخل اليشكري وهو جاهلي صقلته الحضارة ودمته الترف في قصور الملوك، ولننظر كيف يقول في أخذ الفتى بأعطاف الفتاة، وقد خلتها هدأة الخدر وغفوة الرقيب :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير
الكعب الحسناء تر قل في الدمقس وفي الحرير
فدفعتها فتدافعت مشى القطة الى الغدير
ولثمتها فتتنفست كتنفس الظبي الغرير
فدنت وقالت ما مني بخيل ما يجسمك من حرور
ما شف جسمي غير حب لك فاهدئي عني وسيري
وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري

٧ - وأظرف ما تنبه اليه الجرجاني إشارته إلى أن الطبع وللخلة أثرا في رقة الشعر وجفافه سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلة . ويقول :

”وأنت تجدد ذلك في أهل عصرك ، وأبناء زمانك ، وترى الجافي الجلف منهم كثر الألفاظ معقد الكلام وعمر الخطاب حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونعمته وفي جرسه ولهجته ، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك “^(٢) .

ولك أيها القارئ أن تبحث عن ذلك أيضا في أهل عصرك وأبناء زمانك : فقد تجد تعقيد بعض المعاني أثرا لالتواء بعض الوجوه والنفوس !!

أما أنا فأشهد بصحة هذه النظرية حين أوازن بين مقامات الحريري ومقامات بديع الزمان أو شعر أبي تمام وشعر أبي نواس . وقد يكون الفرق بين شعر الشباب وشعر الكهول

راجعاً الى هذه الناحية الخلقية : فطالما يأتى الشاعر وهو فنى بما لم يستطعه وهو كهل .
وما أقوى سلطان الجسم والروح فى حياة العقول ! وهنا وجه آخر لدمائة الشعر ورقته :
هو نفس الشاعر حين يتيمه الحب ويأسره العشق . ولم يذكّر الجرجاني أمثلة لذلك اكتفاء
بوضوح الفكرة ، ولو شاء لتمثل بقول بعض الأعراب :

وفى الحيرة الغادين من بطن وبرة غزال كحيل المقلتين ريب

فلا تحسب أن الغريب الذى نأى ولكن من تتأين عنه غريب

وقول الآخر :

فيارب إن أهلك ولم تروها متى بليل أمت لا قبر أعطش من قبرى

وإن أك عن ليلى سلوت فأنما تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر

وان يك عن ليلى غنى وتجلد قرب غنى نفس قريب من الفقر

٨ — وقد نص الجرجاني على أنه لا يريد بالسهل الضعيف ولا يقصد من الرشيق المؤنث
وهو يتكلم عن سهولة الشعر ورشافته ، وإنما يريد النمط الأوسط الذى ارتفع عن الساقط السوقى
وانحط عن البدوى الوحشى . وهو لا يوصى بأجراء الشعر كله مجرى واحداً وإنما يرى أن تقسم
الألفاظ على رتب المعانى فلا يكون الغزل كالفيخر ، ولا المديح كالوعيد ، ولا الهجاء كالاستبطاء ،
ولا الهزل كالجد ، ولا التعريض كالنصريح . فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح
باللباقة والظرف . ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام : فلكل واحد من
الأمرين نهج هو أملك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه . ثم يقول « وليس ما رسمته لك
فى هذا الباب بمقصود على الشعر دون الكتابة ولا يختص بالنظم دون النثر ، بل يجب أن يكون
كتابك فى الفتح والوعيد خلاف كتابك فى التشوق والتمنية واقتضاء المواصله ، وخطابك إذا
حذرت وزجرت أنخم منه إذا وعدت ومئيت . فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل
والتهافت ، وما أعترض به النصريح والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع
علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس ^(١) » .

فأما القذف والإفحاش فهو سباب محض . وليس للشاعر إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم . ويقول بعد كلام « وبمالك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض العمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به . ولست أعنى بهذا كل طبع . بل المذهب الذى قد صقله الأدب ، وشجذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الردى والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقيح »^(١) .

٩ — والذى يتعقب النقد عند العرب يرى الجرجاني مسبوقا في هذه الآراء . فليس له إلا فضل الترتيب والتنسيق . وهو فضل ليس باليسير . على أنك تشعر وأنت تراه يتصرف في هذه الافكار تصرف المالكين أن عقله أشرب مذاهب النقد والمفاضلة بين طبقات النثر الجيد والشعر البليغ ، بحيث يتعذر عليه هو نفسه أن يميز ما استفاده بالدرس والمراجعة وما أمدته به قريحته المتوقدة وذوقه السليم... وللقارئ أن يرجع الى صحيفة بشر بن المعتمر ووصية أبي تمام^(٢) للبحترى فسيرى عناصر هذه النظريات التى يسوقها الجرجاني في سياسة النفس وتقويم البيان . ولكنه سيرى كذلك أن الجرجاني أنهض بحجته ، وأملك لرايه ، وأقرب الى نفس قارئه من الذين سبقوه في هذا الباب . وتلك دلالة على استقلاله بما أودع كتابه من الآراء .

١٠ — وقد رأى أبو الحسن الجرجاني أن يفرق بين الشعر والدين وأن يميز بين غاية الأدب وغاية الأخلاق . وهو يعجب ممن ينتقص المتنبي ويفض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة ، كقوله :

يترشفن من فى رشقات هن فيه أحلى من التوحيد
وقوله :

وأبهر آيات التهامى أنه أبوكم وإحدى ما لكم من مناقب

مع أنهم احتملوا إسراف أبي نواس في مثل قوله في انتهاب اللذات والشك في عذاب
الاخرة :

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة . (٢) ص ٥٨ من البيان والبيان .

(٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٠١ ط أول .

فدع الملام فقد أطعت غوايتي ونبذت موعظتي وراء جداري
ورأيت إيشار اللذاذة والهوى وتمتعا من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظر أجل ظنى به رجم من الأخبار
إني بعاجل ما ترين موكل وسواه إرجاف من الآثار
ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة مذمات أو في نار

ويقول في تأييد هذه النظرية "فلو كانت الديانة عارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يحمى اسم أبي نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الآية عليه بالكفر ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبيرى واضراهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكاء خرسا وبكاء مفحمين . ولكن الأمرين متباينان . والدين بمعزل عن الشعر" (١) .

ويجب أن نذكر أن صاحب هذه الفكرة هو "قاضي القضاة" وسيد الفقهاء في الرأي وجرجان : لنعرف إلى أى حد كانت النزعة الفتنية سيطرة على مشاعر هذا القاضي الأديب . غير أننا نلاحظ أن الشعر الذي تمثل به لأبي نواس لا يشفع في تأييد هذا الرأي الخطير . فليست الشاعرية أن يعلن الرجل كفره أو إيمانه في تعابير لا رونق لها ولا ماء ، كما أعلن كفره أبو نواس ، وكما يعلن الأشياخ والأخبار والرهبان حرصهم على الدين والأخلاق ، وإنما الشاعرية روح يتوحد به الشاعر فيمز نفسه القارئ أو السامع هزا عنيفا يحمله على أن يؤمن وهو طائع ذلول بما يدعو إليه الشاعر من ترين الاثم والبغى أو تقبيح النى والفسوق .

ومن ذا الذى لا تروقه روعة الفتك في قول ديك الحق :

لما نظرت إلى عن حلق المها وبسمت عن متفتح الشوار
وعقدت بين قضيب بان أهيف وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدى في الثرى لك طائعا وعزمت فيك على دخول النار

أو من ذا الذى لا يخشع لعظمة الفضل والوقار فى قول معن بن أوس :
 لعمرك ما أهويت كفى لريسة^(١) ولا حملتنى نحو فاحشة رجل
 ولا قادنى سمى ولا بصرى لها ولا دلنى رأى عليها ولا عقلى
 وأعلم أنى لم تصبني مصيبة من الدهر إلا قد أصابت قى قبل
 ولست بمأش ما حيت لمكر من الأمر لا يمشى الى مثله مثلى
 ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة وأوثر ضيفى ما أقام على أهلى

والشاعر الواحد قد يرضيك جده وهزله ، ويروقك شكه ويقينه ، حين يصدر عن ألوان
 نفسه ، ويتحدث صادقا عن أسرار قلبه . ولا عيب على الشاعر فى أن تختلف آراؤه باختلاف
 ذوقه وإحساسه : فإن الشعر كالمرآة . والنفس دنيا ثانية تتراءى صورها المختلفة فى لوحة الشعر
 الجميل . وما ذا تريدون من الشعر والأدب أيها الناس ! أتريدون أن تعلنوا الأحكام العرفية
 على الكتاب والشعراء والفنانين لئلا ينظروا بعيونهم ، ويفقهوا بقلوبهم : فيكون من آثارهم
 ما ينقض ما تواضعتم عليه منذ أجيال ؟ إن الله الذى يلون العالم كل يوم بلون جديد
 وتفتن يده الصَّنَاع فى تزيين الأرض والسموات ، وينفخ من روحه فيمن اصطفاهم للشعر
 والبيان ، هو وحده جل شأنه القادر على أن يقول : هذا ما أريد أن يكون ، وذلك ما أنكر
 أن يكون !! وسيظل الأدب الحق أداة يعرب بها الشعراء عما تريد القدرة أن تصوّره
 محاسن هذا الوجود .

فهنيئاً لمن أراد الله أن يشرّبهم صفوة الحياة ليكون للعالم من أدبهم فرقان وانجيل .

* * *

تلك نواح كشفنا عنها وبينّاها من كتاب الوساطة راجين أن يعود اليه القارئ طلباً للزيد .
 فليس النقد إلا وسيلة الى إثارة الرغبة فى المراجعة والشوق الى الاطلاع .

(١) الربة ، بكسر الراء ، التمة .

٣ - ابنه فارس

١ - لم تعين كتب التراجم السنة التي ولد فيها أحمد بن فارس، ولم يتفق مترجموه على المكان الذي ولد فيه . وقد نسبته ابن الأنباري إلى المكان الذي مات فيه وهو الرى : فسماه أبا الحسين الرازي . والرازي نسبة شاذة إلى الرى ^(١) . ويقول ياقوت في معجم الأدباء ^(٢) : « واختلفوا في وطنه فقيس : كان من رستاق الزهراء من القرية المعروفة كرسف وجياناباذ، وقد حضرت القريتين مرارا ولا خلاف أنه قروي . حدثني والدي محمد بن أحمد وكان من جملة حاضري مجالسه أنه أتاه آت فسأله عن وطنه فقال : كرسف . قال فتمثل الشيخ :
بلادها شئت على تماثي وأول أرض مس جلدى ترابها »

أما وفاته رحمه الله فكانت بالرّى في صفر سنة ٣٩٥ هجرية وقد دفن بجوار قاضي القضاة علي بن عبد العزيز الجرجاني .

٢ - ذكر السيوطي في بغية الوعاة أن ابن فارس كان نحويا على طريقة الكوفيين وأنه سمع أباه وعلي بن إبراهيم بن سلمة القطان . وذكر ابن الأنباري أنه أخذ عن أبي بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب . وعن أبي عبد الله أحمد بن طاهر المنجم، وكان يقول عن أبي عبد الله هذا : « ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه ^(٣) » وكان ابن فارس حريصا على تدوين ما يأخذه عن أبيه . وقد أثبت ابن الأنباري شاهدا على ذلك الحرص نكتفي بالإشارة إليه . وذكر ياقوت أن ابن فارس حدث عن أبيه أنه قال : هججت فلقيت بمكة ناسا من هذيل بخاريتهم ذكر شعرائهم فاعرفوا أحدا منهم . ولكنني رأيت أمثل الجماعة رجلا فصيحاً وأنشدني :

إذا لم تحظ في أرض فدعها وحث العملات على وجاها ^(٤)

ولا يغرك حظ أخيك فيها إذا صفرت يمينك من جداها

(١) طبقات النحاة ص ٣٩٢ (٢) ج ٢ ص ١٢ (٣) ص ١٥٣ (٤) طبقات النحاة ص ٣٩٢

(٥) العملات : الجمال .

ونفسك فز بها إن خفت ضيما وخل الدار تحزن من بكائها
فانك واجد أرضا بأرض ولست بواجد نفسا سواها

٣ — كان لابن فارس عدد كثير من التلامذة أشهرهم صاحب بن عباد وبديع الزمان الهمداني . أما حاله مع صاحب فقد ابتدأت بوقاق ، وانتهت بشقاق — نسجع على ذكرى صاحب بن عباد! — تمت بينهما الألفة في بداية الأمر حتى وضع ابن فارس كتابه « الصاحبي » نسبة الى صاحب . وحتى مدح صاحب ابن فارس بقوله « شيخنا أبو الحسين محمد رزق حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصحيف »^(١) ثم انحرف صاحب عن ابن فارس لانتسابه إلى خدمة آل العميد وتعصبه لهم فأنفذ اليه من همدان كتاب الحجر من تأليفه فقال صاحب « رد الحجر من حيث جاءك » ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وأمر له بصلته^(٢) . وكان صاحب كما ذكر ياقوت في معجم الأدباء^(٣) يعرض أحيانا لابن فارس فيذكر أنه رأى « بعض الجهال يصحف ويقول » . وأما حاله مع بديع الزمان الهمداني فكانت فيما يظهر غاية في صفاء الوداد . نعرف ذلك من كتاب بديع الزمان إلى أستاذه جوابا على كتاب ورد إليه منه في ذم الزمان . ومن البر بالأدب والتاريخ أن نذكر هنا نص ذلك الكتاب لنرى كيف كان بديع الزمان يرتاب فيما تقدمه من نظام الحكومات الإسلامية ، وكيف كان يحذر قلب النفس الإنسانية التي تُجَلُّ غدرها في قصائد الشعراء ، وصحائف الأنبياء . ولنتذكر كيف يقول « نعم أطال الله بقاء الشيخ الإمام إنه الحما المسنون »^(٤) وإن ظنت الظنون ، والناس ينسبون لآدم ، وإن كان العهد قد تقدم . وارتبكت الأضداد ، واختلط الميلاد . والشيخ الإمام يقول « فسد الزمان » أفلا يقول متى كان صالحا ؟ أفى الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسمعنا أولها ؟ أم المدة المروانية وفي أخبارها لاتكسع الشول بأغبارها ؟ أم السنين الحربية^(٥) .

(١) طبقات الأدباء ص ٣٩٤ (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩ (٣) ج ٢ ص ٣٠٢

(٤) الحما المسنون : الطين المتغير . (٥) الشول جمع شائلة على غير قياس . والأغبار جمع غبر وهو بقية اللبن . والكسع هو ترك بقية من اللبن في أخلاف الناقة . المعنى : لا تغز لبن إهلك واحلبها لأضيافك فانك (لا تدري من الناجح) كما في بقية البيت . (٦) نسبة الى حرب بن أمية ، والمراد خلافة معاوية وابنه يزيد .

(١) والريح يركز في الكلى
(٢) والسيف يغمد في الطلى
ومبيت حجر في الفلا والحارثان وكربلا

أم البيعة الهاشمية وعلى يقول : ليت العشرة منكم براس من بنى فراس ؟ أم الأيام الأموية
والنفير إلى الحجاز ، والعيون إلى الأعجاز ؟ أم الامارات العدوية وصاحبها يقول : وهل بعد
البرول إلا النزول ؟ أم الخلافة التيمية وصاحبها يقول : طوبى لمن مات في نأفة الاسلام ؟
أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل : اسكتي يا فلانة ، فقد ذهبت الأمانة ؟ أم في الجاهلية
ولبيد يقول :

ذهب الذين يعاش في أكافهم وبقيت في خلف بكلد الأجر
أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بلاد بها كنا وكنا نجبها إذ الناس ناس والزمان زمان
أم قبل ذلك وقد روى عن آدم عليه السلام :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح

أم قبل ذلك وقد قالت الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ وما فسد
الناس ، وإنما اطرد القياس . وما أظلمت الأيام ، وإنما امتد الظلام . وهل يفسد الشيء
إلا عن صلاح ، ويمسى المرء إلا عن صباح ؟

ثم انتقل بديع الزمان إلى الرفق بأستاذة والعطف عليه فقال :

« ولعمري لئن كان كرم العهد كتابا يرد ، وجوابا يصدر ، إنه لقريب المنال ، وإنى على
توبيخه لى لفقيه إلى لقائه ، شفيق على بقاءه ، منتست إلى ولائه ، شاكر لآلائه . لا أحل حريدا
عن أمره ، ولا أقف بعيدا عن قلبه . مانسيته ولا أنساه . إن له أيده الله على كل نعمة خولنيها
الله نارا ، وعلى كل كلمة علمنيها منارا . ولو عرفت لكأبى موقعا من قلبه لاغتنمت خدمته
به ولرددت إليه سؤر كاسه ، وفضل أنفاسه . ولكنى خشيت أن يقول (هذه بضاعتنا ردت

الينا) وله أيده الله العتي ، والمودة في القربي ، والمربع ، وما ناله الباع . وما ضمه الجلد ،
وضمته المشط . وليست رضاي ولكنها جل ما أملك » .

إلى آخر ما قال^(١) :

ولو وجدنا نص الكتاب الذي بدأ به ابن فارس لعرفنا شيئاً من صور نفسه ، وألوان قلبه :
فان لأزمات القلب ، وبفحات النفس ، دلالة كبيرة على المناحي التي يمنح اليها الكتاب والشعراء
والباحثون^(٢) .

٥ — كان ابن فارس وسطاً في شعره ونثره : فلم يكن يُسَفَّ حتى يصل الى وصمة
الإعياء . ولم يكن يعلو حتى يصل الى جودة البيان . ونثره في جملة بين واضح مقبول . يعجبنى
منه قوله — في تقرير رجال الفقه والحديث على اللحن وترك الإعراب — : « وقد كان الناس
قديماً يمتنّبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرءونه اجتنابهم بعض الذنوب . فأما الآن فقد تجوزوا
حتى إن المحدث يحدث فيلحن والفقيه يؤلف فيلحن . فاذا نبها قالوا (ما ندرى ما الاعراب
وإنما نحن محدثون وفقهاء) فهما يُسران بما يساء به اللبيب ! ولقد كلمت بعض من يذهب
بنفسه ويراها من فقه الشافعي بالرتبة العليا في القياس . فقلت له : ما حقيقة القياس وما معناه ؟
من أى شيء هو ؟ فقال (ليس على هذا وإنما على إقامة الدليل على صحته) .

« فقل الآن في رجل يروم إقامة الدليل على صحة شيء لا يعرف معناه ولا يدرى ما هو
ونعوذ بالله من سوء الاختيار ! » .

وللقارئ أن يتأمل هذه الجملة فسيراها جيدة المعنى نقية الأسلوب ، وسيرى كيف وصل
الكاتب الى ما يرمى اليه من التهمك اللاذع بالفقهاء والمحدثين من غير أن يلجأ الى غرابة المعاني

(١) راجع ص ٤١٤ و ٤١٩ — من رسائل البديع . (٢) الذي في رسائل بديع الزمان أن هذه
الرسالة جلت جواباً عن كتاب ورد اليه من ابن فارس في ذم الزمان . وفي نهاية الأرب ج ٧ ص ٢٦٢ أن بديع
الزمان ذكر في مجلس ابن فارس فقال ما معناه : إن البديع قد نسي حق تعليمنا إياه وعقنا وشمخ بأنفه عنا فالحمد لله على
فساد الزمان وتغير نوع الانسان ! فبلغ ذلك البديع فكتب الى ابن فارس ذلك الكتاب .

وجلجلة الألفاظ . وفي هذه الجملة أيضا دلالة على أن غفلة الفقهاء عن اللغة العربية قديمة العهد وليست من سيئات العصر الحديث .

٦ — أما شعر ابن فارس فهو على قلته يكاد يقف عند شكوى الزمان . من ذلك قوله — وقد قل ماله ، وكثر دينه ، ولم يغنه علمه — :

سقى همدان الغيث لست بقائل سوى ذا وفي الأحشاء نار تضرم
وما لي لا أصفى الدعاء لبلدة أفدت بها نسيان ما كنت أعلم^(١)
نسيت الذي أحسنه غير أنى مدين وما في جوف بيتي درهم

وقوله في كثرة همومه وتعزیه بالهرة والكتاب والمصباح اذا أوى الى بيته المقفر الجديب :

وقالوا كيف حالك ؟ قلت خير تقضى حاجة وتفوت حاج^(٢)
نديمى هرتى وأنيس نفسى دفاترلى ومعشوق السراج

وقد يستظرف دفاعه عن البخل والحرص إذ يذكر أن المال المضنون به يسخر الحمقى

لخدمة صاحبه : فقد يكرم الرجل لغناه قبل أن يكرم لفضله . وفي هذا المعنى يقول :

يا ليت لى ألف دينار موجهة وأن حظى منها فلس إفلاس^(٣)
قالوا فما لك منها قلت تخدمنى لها ومن أجلها الحمقى من الناس

وقد يستجاد قوله في التغاضى عن هفوات الصديق :

عتبت عليه حين ساء صنيعه وآليت لا أمسيت طوع يديه^(٤)
فلما خبرت الناس خبر مجرب ولم أر خيرا منه عدت اليه

ومن ظريف الإشارة الى ضعف حجج النحاة قوله في فتور الحفون :

مرت بنا هيفاء مقدودة تركية تنمى لتركى^(٥)
ترزو بطرف فاتر فاتن أضعف من حجة نحوى

(١) ص ٢١٨ ج ٣ من القيمة . (٢) ص ٢١٩ ج ٢ (٣) ص ٢١٩ ج ٢

(٤) ص ٢٢٠ (٥) ص ٢٦٩

٧ — لابن فارس مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا القليل . والذي يعنينا هو (الصاحبي) الذي قدمه الى الصاحب بن عباد ، وهو كتاب متوسط الحجم يقع في ٢٣٢ ص بالقطع الكبير طبعته المطبعة السلفية في سنة ١٩١٠ طبعاً جيداً نقلاً عن نسخة صحيحة بخط المرحوم الشيخ الشنقيطي من مكتبته بدار الكتب المصرية وقد نقلها رحمه الله عن نسخة في إحدى مكاتب القسطنطينية قرئت على المؤلف في سنة ٣٨٢ هـ ، وعلى ظهرها بخطه ما يفيد إجازة القراءة والنسخ . قال المرحوم الشنقيطي ” وكانت مقابلتي إياه صفحة صفحة : لا أبتدئ الصفحة إلا بعد مقابلة الصفحة التي كتبتها قبلها فتمت كتابته ومقابلته في آن واحد والله الحمد“ .

أما قيمة الكتاب من الوجهة العلمية فستظهر حين نناقش ما فيه من مختلف الأبحاث .

٨ — يحار الباحث في تحديد حياة ابن فارس العقلية : ومرجع هذه الحيرة هو ظهور هذا الرجل بلونين مختلفين كل الاختلاف . أما سبب هذه الحيرة فهو إغفال المتقدين تاريخ آثار هذا اللغوي الأديب فقد نعرف أنه راجع كتاب الصاحبي في سنة ٣٨٢ ولكننا لا نعرف في أي سنة من سني حياته العلمية وضع رسالته في الرد على محمد بن سعيد الكاتب . والفرق بعيد جداً بين رسالته هذه وكتابه ذلك : فهو في ”الصاحبي“ رجل حذرٌ هيب يحسب مسaire العقل جريمة ، ويعتد التفكير من جملة الذنوب . ولكنه في رسالته الى ابن سعيد باحث مملوء بالغيرة والحمية لكل حق ولكل جديد .

نظرات ابن فارس في كتاب ”الصاحبي“ كلها جمود وكلها ذهول . وقد يصحح أحياناً فيرمي بالقول السديد . وحسب القارئ في الدلالة على إغراق كتاب الصاحبي في «الرجعية» أن يعرف أن ابن فارس يفضل العروض على الفلسفة . ويقول في وصفه ”علم العروض الذي يربى بحسنه ودقته واستقامته على كل ما يتبجح به الناسون أنفسهم الى التي يقال لها الفلسفة“ .^(٢)

ومن هذه العبارة أخذ الشيخ بخيت فيما نظن قوله في ريسان ”ذلك الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف“ .

وحقا إن الفلسفة لا تزيد عن أنها « التي يقال لها الفلسفة » ورينان لا يزيد عن أنه " الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف " وسبحان من أغنانا عما ترك المبدعون في العلوم والفنون !!

وأغرب من هذا أن يستنكر ابن فارس أن يكون للفلاسفة مؤلفات في النحو والإعراب وأن يستبعد أن يكون لهم شعر جميل . ويقول في ذلك " وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو "، ثم يقول " وهذا كلام لا يعرج على مثله . وإنما تشبه القوم آنفا بأهل الاسلام فأخذوا من كتب علمائنا وغيروا بعض ألفاظها ونسبوا ذلك الى قوم ذوى أسماء منكرة بترجم بشعة لا يكاد لسان ذى دين ينطق بها . وأدعوا مع ذلك أن للقوم شعرا . وقد قرأناه فوجدناه قليل الماء نزر الحلاوة غير مستقيم الوزن " ثم يقول في وصف العروض " ومن عرف دقائقه وأسرارته وخفائيه علم أنه يربى على جميع ما يتبجح به هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والخطوط والنقط التي لا أعرف لها فائدة . غير أنها مع قلة فائدتها ترق الدين وتنتج كل ما نعوذ بالله منه " .^(٢)

وكذلك كان يرتاب أكثر المتقدمين في العلوم العقلية . ويرونها خطرا على العقائد : كما يفعل المتأخرون اليوم . وهذا كله هرب من البحث وإخلاد الى الخمول . وإلا فكيف يبعد الناس عن دينهم كلما توغلوا في درس حقائق الأشياء ؟

٩ — ترك هذه الناحية من عقلية ابن فارس التي تمثل لنا رأيه ورأى أمثاله في فهم ما توحى به العقول . وانتقل الى الجانب المشرق من حياته العقلية فنراه يمثل لنا انقسام أهل ذلك العصر الى طائفتين تقتتلان . تدعو إحدهما الى الاكتفاء بما ترك المتقدمون من الآثار الأدبية . وتدعو أخراهما الى الابداع والتجديد في عالم الآداب . ويكفى أن يعرف الباحث أن من رجال ذلك العصر من أنكر اختيار الشعرا اكتفاء بديوان الحماسة ليرى أن (الرجعية)

كانت تفتك بأحلام أولئك الناس وأن الصراع بين القديم والحديد يكاد يتصل بالحياة الفكرية في جميع الأجيال .

وفي رسالة ابن فارس الى محمد بن سعيد صورة لهذه الخصومة العقلية التي شهدتها رجال القرن الرابع . فلنتركه يتكلم ولننظر كيف يدافع عن شعراء عصره المبدعين إذ يقول في خطابه الى ابن سعيد ” ألهمك الله الرشاد، وأصحبك السداد، وجنبك الخلاف، وحبب اليك الانصاف ! وسبب دعائي هذا لك إنكارك على أبي الحسن محمد بن علي العجلي تأليفه كتابا في الحماسة وإعظامك ذلك وأعله لو فعل حتى يصيب الغرض الذي يريده ، ويرد المنهل الذي يؤمه لاستدرك من جيد الشعر ونقيه، ومختاره ورقيه ، كثيرا مما فات الأول . فما ذا الانكار ولم الاعتراض ؟ ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم ؟ ولم تأخذ بقول من قال ” ما ترك الأول للآخر شيئا “ وتدع قول الآخر ” كم ترك الأول للآخر “ وهل الدنيا إلا أزمان ولكل زمن منها رجال ؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم ووقفها على وقت محدود ؟ ولم لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه ، ويجمع مثل جمعه ، ويرى في كل ذلك مثل رأيه ؟

وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوازل الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ؟

أو ما علمت أن لكل قلب خاطرا ولكل خاطر نتيجة ؟ ولم جاز أن يقال بعد أبي تمام مثل شعره ولم يجوز أن يؤلف مثل تأليفه ؟ ولم حجرت وأسعا وحظرت مباحا وحرمت حلالا وسددت طريقا مسلوكا ؟ وهل (حييب) الا واحد من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ؟ ولم جاز أن يعارض الفقهاء في مؤلفاتهم ، وأهل النحو في مصنفاتهم ، وأرباب الصناعات في جميع صناعاتهم ، ولم يجوز معارضة أبي تمام في كتاب شذ عنه في الأبواب التي شرعها فيه ؟ أمر لا يدرك ولا يدرك قدره !!

ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أفهام ثاقبة، ولكأت ألسن لسنة، ولما توشى أحد لخطابة ولا سلك شعبا من شعاب البلاغة ولجت الأسماع كل مرّد مكر، وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ . وحسام لا يسأم (لو كنت من مازن لم تستبح إبلى) وإلى متى "صفحنا عن بني ذهل" — إلى أن قال "وهلا حثت على إثارة ما غيبته الدهور وتجديد ما أخلقته الأيام وتدوين ما نتجته خواطر هذا الدهر وأفكار هذا العصر؟ على أن ذلك لو رامه رائم لأتعبه ولو فعله لقرأت ما لم يحط عن درجة من قبله من جد يروعك، وهزل يروك، واستنباط يعجبك، ومزاح يلهيك" .^(١)

١٠ — تلك هي الناحية المشرفة من حياة ابن فارس العقلية وهي كما يرى القارئ تختلف عن سابقتها أشد الاختلاف. وقد ذكر صاحب اليتيمة جزءا كبيرا من هذه الرسالة فليرجع إليها من يطلب المزيد. ولكننا نرى من البر بالأدب أن نذكر نماذج من الشعر المحدث لعهد ابن فارس وكانت تضيق به نفوس الرجعيين إذا ذاك . وهو يستجيد قول يوسف بن حمويه المعروف بالملنادى وكان من أهل قزوين :

حج مثلى زيارة الخمار	واقتنأى العقار شرب العقار
ووقارى إذا توقر ذو الشيد	بنة وسط الندى ترك الوقار
ما أبالى إذا المدامة دامت	عذل ناه ولا شناعة جار
رب ليل كأنه فرع ليل	ما به كوكب يلوح لسارى
قد طويناه فوق خشف كحيل	أحور الطرف فاتر سحار ^(٢)

(١) ص ٢١٥ و ٢١٦ ج ٣ يتيمة .

(٢) وردت هذه الأبيات في ديوان أبي نواس مع اختلاف قليل، وربما كانت بما أضيف إلى شعر أبي نواس لاتصالها بفته المعروف في الغزل والشراب، وهي في الديوان طويلة تصل إلى خمسة عشر بيتا آخرها هذا البيت الحكيم :

فتى يفلح الفتى وهو إن را ح يسكر وإن غدا فى نمار

ويستجيد قول أحمد بن بندار :

زارني في الدجى فتم عليه طيب أردانه لدى الرقباء
والثريا كأنها كف خود أبرزت من غلالة زرقاء

ويستجيد قول بعض رجال الموصل :

فديتك ما شبت عن كبرة وهذى سنى وهذا الحساب
ولكن هجرت فخل المشيب ولو قد وصلت لعاد الشباب

الى هنا وقف القارئ على شيء من حياة ابن فارس يقربه اليه بعض التقريب ان لم يمثله كل التمثيل . فلنأخذ في نقد آرائه في فقه اللغة العربية والكشف عما فيها من مظان الخطأ ومواقع الصواب .

٤ - نقد آراء ابنه فارس في فقه اللغة العربية

١ - الفقه العلم بالشئ والفهم له والفطنة . وغلب على علم الدين لشرفه . كما في القاموس المحيط . وفي أساس البلاغة (قال أعرابي لعيسى بن عمر شهدت عليك بالفقه : أى بالفهم والفطنة . وفي الحديث (من أراد الله به خيرا فقهه في الدين) وفقّهت فلانا كذا وأفقّته آياه فهمته ففقهه وتفقهه . وقال عمر بن الخطاب بن عبد الله كنت سيدا في الجاهلية وفقّيتها في الاسلام . قال الزمخشري وتقول فلان بين الفراهة : في أبواب الفقه . وفل فقيه عالم بذوات الضبع وذوات الحمل ^(١) .

فالفقه كما ترى دقة الفهم ونفاذ البصيرة في التفريق بين حقائق الأشياء . وعبارة " فقه اللغة " لم يكدها يتفق القدماء على إفرادها بمذلول خاص . وإنما نجدتها في تعابير الكتاب والمؤلفين على سبيل الاختيار لاعلى وجه التعيين . والتعالي يحدّثنا بأن كتابه (فقه اللغة) إنما سمي بهذا الاسم وفقا لاختيار الأمير الذي أهدها إليه فدل ذلك على أن المنحى الذى سلكه في تأليفه لم يكن جريا على خطة آتفق عليها الباحثون في ذلك الحين . فما هو المقصود من عبارة (فقه اللغة) في العصر الحديث ؟ ذكر السنيور جويدي في محاضراته الأولى بالجامعة المصرية (٧) أكتوبر سنة ١٩٢٦ أن كلمة (Philologie) تصعب ترجمتها بالعربية وأن لها في اللغات الغربية معنى خاصا لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب . فمنهم من يرى هذا العلم مجزء درس قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية . ومنهم من يذهب الى أنه ليس درس اللغة فقط ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوها . وإذا صح هذا فمن الممكن أن يدخل في دائرة " الفيلولوجى " علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الأدب في معناه الأوسع فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم

(١) الضبع — بفتحين — شهوة الناقة الى الفعل .

من حيث تصنيف الكتب العلمية ، وتاريخ الفقه من حيث تدوينه في المجاميع والمجلات وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية ، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام . ولا سبيل الى معرفة كنه هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذي نشأت فيه تلك الآثار الأدبية “ .

ويترتب على هذا التعريف كما ذكر السنيور جويدي أن يصبح هذا العلم من أوسع العلوم دائرة وأن يصبح « الفيلولوج » مضطرا الى البحث عن أوائل الأدب حين يدرس درجة التمدن عند شعب من الشعوب ، والى تأمل العلاقات التي كانت بينه وبين غيره وما أثر فيه من الحوادث السياسية والتاريخية . ثم لا يكفي لمن يريد درس كتب المجوس الدينية مثلا أن يقف عند معرفة اللغات الإيرانية بل عليه أن يطيل النظر في كل وجوه الحياة عند الفرس وما تأثر به هذا الدين مما اتصل به من العقائد والديانات .

هذا هو اتجاه السنيور جويدي الذي كان أستاذ فقه اللغة العربية بكلية الآداب . وهو كما يرى القارئ يجعل مهمة الباحث في هذا العلم شاقة عسيرة ويرد ما تميز واستقل من علوم اللغة الى علم واحد تنوء به عزائم الآحاد . وقد شعر الأستاذ نفسه بهذا فقرّر أنه لا يمكن للباحث أن يجيد إلا جزءا واحدا من ذاك العلم الكثير الأجزاء !

٢ — على أن من الحق أن نقرر أن كلمة “ فقه اللغة ” التي اختيرت لترجمة كتاب التعالبي لم يرم بها فائلها من غير أن يكون لها في نفسه مدلول خاص : فقد وردت هذه الكلمة في فاتحة كتاب ابن فارس إذ قال “ هذا الكتاب الصاحب في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها ” وهو بالطبع كان يعرف ما ترمى اليه هذه التعابير . فلم يبق إلا أن يكون الباحثون في علوم اللغة العربية لذلك العهد قد فكروا في فن جديد غير ما عُرف من علوم البلاغة وما اصطُلع عليه من مسائل النحو والصرف والاشتقاق . وهذا الفن الجديد الذي كاد ينفرد به رجال القرن الرابع والخامس لم يحد من يُعنى بتدوين أصوله ، وتحقيق فروعه ، حتى يستقل عن غيره بعض الاستقلال . وإنما ظل كما ابتدأ مسائل متفرقة ينقصها الترتيب والتفصيل

ويعوزها النقد والتمييز، وما الى ذلك من أنواع العناية بمختلف الفنون . وعندى ان أهم ما يؤخذ على المؤلفين فى فقه اللغة هو إهمال المصادر وإهمال التاريخ ولنضرب لذلك الأمثال :

جاء فى الفصل الثالث من الباب التاسع عشر من كتاب الثعالبي أن ”الارتكاض“ حركة الحنين ”والنوس“ حركة الغصن بالريح ”والتدلدل“ حركة الشيء المتدلى – و”الترجرج“: حركة الكفل السمين والقالودج الرقيق . و”النسيم“: حركة الريح فى لين وضعف . و”الذماء“: حركة القنيل . و”النودان“ حركة اليهود فى مدارسهم . وكان يجب أن يذكر بجانب هذا التنويع ما يؤيده من الشعر الموثوق بصحته وأن يدلنا على العصر الذى استعملت فيه كلمة ”النودان“ مثلا وأن يبين أعربية هى أم عبرية .

وجاء فى الفصل السابع عشر من الباب الرابع والعشرين أن الانسان إذا شرب فهو نشوان وإن دب فيه الشراب فهو ثمل . فإذا بلغ الحد الذى يوجب الحد فهو سكران . فإذا زاد امتلاء فهو سكران طافح . فإذا كان لا يتماusk ولا يتمالك فهو ملتخ . فإذا كان لا يعقل شيئا من أمره ولا ينطق لسانه قيل سكران بات وسكران ما يبت . وكان من الواجب أن يذكر لنا الثعالبي شيئا عن أصول هذه التعابير وأن يرينا متى وقعت كلمة (سكران طافح) وكيف وقعت : فى شعر أوفى نثر . وإذا كان مصدرها الشعر فمن يدرينا لعل للوزن والقافية دخلا فى صبغها بصبغة التأكيد . وكل ما عمله الثعالبي أن دلنا على أن كلمة (ملتخ) منقولة عن الأصمعي وأن (سكران بات وسكران ما يبت) كلاهما عن الكسائى ولم يتعرض لأيهما الراجح وأيهما المرجوح .

وهذا المأخذ يسرى على جميع الأبواب التى روعى فيها حصر الأوصاف والنوع . فإن أكثر ما جرى عليه الثعالبي فى ”فقه اللغة“ وآبن سيده فى ”المخصص“ وآبن الأجدابي فى ”كفاية المتحفظ“ لم يلاحظ فيه اختلاف اللغات . وإنما كان الغرض منه جمع الأشباه والنظائر فى الصفات والأسماء .

٣ — قلت لك إن المتقدمين لم يفردوا هذا العلم بموضوع خاص ، والآن أشير إلى أن منهم من غلبت عليه صنعة الكتابة فكان من همه أن يزيد في مادة الإنشاء بجمع ما تبدد من الألفاظ والتعابير، وكان منهم من غلب عليه النحو والتصريف فكان من همه أن يقيد ما أطلقه من حرموا صناعة الإعراب إذ وجدهم (لا يبينون ما أنقلبت فيه الألف عن الياء مما انقلبت الواو فيه عن الياء ولا يتحدثون الموضع الذي انقلب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو مع عكس ذلك ولا يميزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب وما هو من ذلك لغتان . وذلك بكذب وجبذ . ويئس وأيس . ورأى وراء ... وكذلك لا ينفهون على ما يسمعون غير مهموز مما أصله الهمز على ما ينبغي أن يعتقد منه تخفيفا قياسيا وما يعتقد منه بدلا سماعيا ولا يفرقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع ^(١) .

وهذا الاتجاه يسير إلى ما رمى إليه ابن جني في "الخصائص" وإن كان دونه .

فإن ابن جني أراد أن يسمو على ما شغل به الكوفيون والبصريون وأن يعمل في أصول النحو ما عمله الذين سبقوه في أصول الفقه ^(٢) . وهذا وذلك سعى إلى غاية واحدة هي إنشاء فن جديد يجمع بين أسرار اللغة وأسرار الإعراب . ولا تزال الحاجة شديدة إلى فهم ما حاوله الثعالبي وابن جني وابن سيده من دقائق هذا الفن العجيب ، والبحث عن المصادر الأولى التي مهدت لهم السبيل إلى التعمق في بعض الأبواب ، وتعقب الآثار الأدبية التي تعين على تصحيح ما وقعوا فيه من الأغلاط . وذلك يتطلب كثيرا من الجهود .

٤ — في كتاب ابن فارس طائفة من الأبحاث يتصل بعضها بأسرار اللغة ويرجع بعضها إلى مسائل عرضية كانت مما يشغل الناس إذ ذاك . من هذا كلامه عن الخط العربي وأول من كتب به وهو ينقل في سذاجة أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة . كتبه في طين وطبخه فلما أصاب الأرض الفرق وجد

(١) راجع مقدمة المخصص . (٢) ص ٧ من الخصائص

كل قوم كتابا فكتبوه فأصاب اسماعيل الكتاب العربي . ويرى كذلك أن الخط توقيف لظاهر قوله عز وجل : « إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ويرى أنه ليس ببعيد أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء على كتاب ويقول « فاما أن يكون مخترع اخترعه من تلقاء نفسه فشيء لا تعلم صحته إلا من خبر صحيح^(١) » .

ويبالغ في إثبات أن لغة العرب توقيف لا اصطلاح . ويرى كما رأى في زعمه ابن عباس أن الأسماء التى علمها الله آدم "هى هذه التى يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحرار وأشباه ذلك" ويقول في سذاجة "ولعل طائفا يظن أن اللغة التى دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد وليس الأمر كذلك بل وقف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه وانتشر من ذلك ما شاء الله ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبياً نبيا ما شاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . فأتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة . ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت ، فان تعمّل اليوم لذلك متعمّل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده^(٢) وهذا التوقيف هو عند ابن فارس منشأ اللغات . وإنه لخطأ مبين . وقد خطر له أن النحاة يقولون إن العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا : من أنها لا تجمع بين ساكنين ولا تبدئ بساكن ولا تقف على متحرك وأنها تسمى الشخص الواحد بالأسماء الكثيرة وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد ، وهذا دليل على أن للعرب شيئا من الاختيار في كيفية التعبير وهو يدفع ذلك بقوله . "إن العرب تفعل كذا بعد ما وطأناه من أن ذلك توقيف حتى ينتهى الأمر إلى الموقف الأول" ويحسن أن نذكر أن ابن فارس لم يبالغ في تأييد هذا الرأي إلا عند الكلام عن منشأ اللغات فقد انطلق عقله بعد ذلك وأدرك أن لاختلاف الاصقاع والأقاليم تأثيرا في تكوين اللغة وإن لم يعط هذا الوجه حقه من البيان .

٥ - وقد غنى ابن فارس وهو يتكلم عن الكتابة والقراءة والخط بمسألة تتعلق برسم المصحف وقراءته : فذكر بسنده أن عثمان أرسل إلى أبي بن كعب كتف شاة فيها "لم يتسن" و"فأمهل الكافرين" و"لا تبديل للخلق" فدعا بالدواة فحأ إحدى اللامين وكتب "لخلق الله" ومحا "فأمهل" وكتب "فمهل" وكتب لم "يتسنه" ألحق فيما هاء .

ونقل عن الفراء أنه قال (إتباع المصحف إذا وجدت له وجهها من كلام العرب وقراءة القرآن أحب إلى من خلافه) .

وأنه قال (وقد كان أبو عمرو بن العلاء يقرأ «إن هذين لساحران»^(١) ولست أجتري على ذلك وقرأ (فأصّدق وأكون) فزاد واوا في الكتاب ولست أستحب ذلك) .

وكان على ابن فارس أن يكشف عن مغزى هذا التغيير في رسم المصحف وأن يبين إلى أى حد يقبل تصحيح النحاة لقراءات القرآن . ولكن يظهر أن رغبة الجماهير في الكف عن التعمق في درس ما يتصل بالدين حالت بينه وبين الإفصاح عما لمحاولات النحاة من الغرض البعيد . ونحن أيضاً نكتفى بالإشارة إلى هذا البحث الخطير^(٢) .

٦ - المعروف أن العلوم العربية لم تنشأ إلا في الاسلام : فالتحوي وضع أبي الأسود الدؤلى . والعروض من وضع الخليل بن أحمد . والبلاغة من وضع عبد القاهر الجرجاني . إلى آخر ما يهيجس به أدعياء التاريخ . وقد تنبه ابن فارس إلى استبعاد هذه البداية للعلوم العربية فذكر أن علم العروض أقدم من عهد الخليل . قال : والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرئ قصيدة الخطيئة التي أولها :

شاقك أظعان لليلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة ولولا علم الخطيئة بذلك لأشبهه أن يختلف أعرابها : لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد لا يكاد يكون^(٣) .

(١) ص ١٠٩ و ١١٠ (٢) القرآن يجب أن يفرد له نحو خاص ، وكذلك الأدب الجاهل والأموى ، ولغات العالم كله تعرف بما يسمى "النحو التاريخي" ونحن في حاجة إلى ذلك النحو لتوجيه بعض ما يبدو شاذاً من تعابير القرآن . (٣) ص ١٠ و ١١

وهنا يجب أن نشير إلى غلطة وقع فيها ابن فارس وهو يذكر أن علم العربية وعلم العروض كانا قبل الدؤل والخليل . فقد نص على "أن هذين العلمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس ثم جددهما هذان الإمامان" .

ومعنى هذا أن النحو الذى نعرفه علم مجدد لا مبتكر، وكذلك العروض . وهذا خطأ إن أردنا أن النحو والعروض كانا قديما على مثل هذا الوضع . والحق أنه يبعد أن لا يكون العرب فكروا في ضبط لغتهم منذ العهود القديمة . ولكنه يبعد كذلك أن يكون ما عرفوه وتواضعوا عليه من الضوابط والقواعد مماثلا لما عرف بعد الاسلام . لأن النحوى الذى نعرفه هو نحو اللغة القرشية فكلمة "العرب" في عبارة ابن فارس تحتاج الى تحديد .

٧ — ولا بن فارس رأى في التعابير الأدبية فقد نقل لنا تعابير كثيرة ضاعت مغازيها من أذهان المتكلمين وبقيت خلوا من المدلول . وهو يرى أن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله وأن علماء اللغة يختلفون في كثير مما قالته العرب فلا يكاد واحد منهم يخبر عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والامكان، وأنه لا يعرف أحد منهم حقيقة قول العرب في الإغراء (كذبك كذا) وما جاء في الحديث من قوله (كذب عليكم الج) "وكذبك العسل" .

وقول القائل :

كذبت عليكم أو عِدوني وعللوا بي الأرض والأقوام قردان موطبا

وقول الآخر:

كذب العقيق وماء شت بارد ان كنت سألتي غبوقا فاذهبي

ونحن نعلم أن قوله (كذب) يبعد ظاهره عن باب الإغراء . وكذلك قولهم (عنك في الأرض "عنك شيئا" وقول الأفوه :

عنكمو في الأرض إنا مذجج ورويدا يفضح الليل النهار

ومن ذلك قولهم "أعمد من سيد قتله قومه" أى "هل زاد ؟" .

وقال ابن ميادة :

وأعمد من قوم كفاهم أخوهمو صدام الأعدى حين فُلت نيوبها

قال الخليل وغيره "معناه هل زدنا على أن كفينا" قال ابن فارس فهذا من مشكل الكلام الذى لم يفسر بعد . وقول أبى ذؤيب :

صخب الشوارب لا يزال كأنه عبد لآل أبى ربيعة مسبح

قال ابن فارس : فقلوه "مسبح" لم يفسر حتى الآن تفسيراً شافياً .

ومن هذا الباب قولهم "ياعيد مالك" و "ياهي مالك" و "ياشئ مالك" ولم يفسروا قولهم "صه" و "ويهك" و "إنيه" ولا قول القائل :

* بخائبك الحق يهتفون وحى هل *

ويقولون "خائبكما وخائبكم" . فأما الزجر والدعاء الذى لا يفهم موضعه فكثير كقولهم "حى" و "حى هلا" و "وبعين ما أرينك" فى موضع اعجل . و (هج) و (هجا) و "دع" و "دعا" و "لعا" للعائر يدعون له وينشدون :

ومطية حملت ظهر مطية حرج تنى مل عثار بدعدع

ويروى عن النبى أنه قال "لا تقولوا دعدع ولا لعلع . ولكن قولوا اللهم ارفع واقع" قال ابن فارس : فلولا أن للكلمتين معنى مفهوما عند القوم ما كرهما النبى . وكقولهم فى الزجر "أخر" و "أخرى" و "دها" و (هلا) و (هاب) و "ارجحى" و "عد" و "عاج" و "باعط" و "يعاط" وينشدون :

وما كان على الجئى ولا الهى امتداحيكما

وكذلك "إجد" و "وأجدم" و "حدج" .

(١)
قال ابن فارس : لا نعلم أحداً فسر هذا .

تأمل أيها القارئ في هذه التعابير المجهولة وأذكر أنها لم تجهل إلا لأنها كانت متصلة بقبائل تناسها المحدثون . ولو كانت هذه التعابير متأصلة في لغة قريش لبقيت معروفة المدلول . وهنا نشير الى أنه لا بد من وضع قاموس يراعى فيه جانب التاريخ . فإن المعاجم العربية جمعت الألفاظ والتعابير من هنا وهناك من غير أن تعين ما عُرف في عصر ثم جُهل وما استُعمل ثم تجاوز الاستعمال . وقد نجد من كتاب العصر الحاضر من يظن المعاجم صورة صادقة لما كان يذهب اليه العرب في طرائق التعبير وهو خطأ لو يعلمون شنيع !

٨ — وقد تنبه ابن فارس الى التعابير التي لا يمكن الوصول فيها الى تعيين المراد . والمشتبه الذي لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتمال وما هو بغريب اللفظ ولكن الوقوف على كنهه معتاض . وذكّر من ذلك قولنا (الحين) و(الزمان) و(الدهر) و(الأوان) فانك لا تدري اذا قال الخالف « والله لا كلمته حيناً أو زماناً أو دهرًا » الى أى حد يتصل الإعراض وكذلك « بضع سنين » مشتبّه . قال ابن فارس وأكثر هذا مشكل لا يقصر بشيء منه على حدّ معلوم ومن هذا الباب على رأيه قولهم في الغنى والفقر وفي الشريف والكريم والثلثم اذا قال « هذا لأغنياء أهلى » أو « فقرائهم » أو « أشرافهم » أو « كرامهم » أو « لثامهم » وكذلك إن قال « امنعوه سفهاء قومي » لم يمكن تحديد السفه .

قال ابن فارس : ولقد شاهدت منذ زمان قريب قاضيا يريد حجرا على رجل مكتهل فقلت وما السبب في حجره عليه ؟ فقليل يزعم أنه يتصيد بالكلاب وأنه سفیه . فقرأ على القاضي قوله جل ثناؤه « وما علمتم من الجوارح مكلّبين تعلموهن بما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم » . فأمسك القاضي عن الحجر على الكهل .^(٢)

٩ — وقد أراد ابن فارس أن يثبت للغة العرب خصائص ليست لغيرها من سائر اللغات فزعم أنها انفردت بالبيان : لقوله جل ثناؤه ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ .

ثم أعقب هذا الشاهد الذى لا يقيم حجته بهذه العبارة « فان قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربى لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين . قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان : لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلماً فضلاً عن أن يسمى بيناً أو بليغاً .

”وان أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط : لأننا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد . ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة . وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟“^(١) .

وهذا كما يرى القارئ كلام أجوف لا طائل تحته وهو يدل على أن ابن فارس كان قليل العلم بما عُرف لعهد من آثار الفرس واليونان . وإلا فكيف جاز له أن يظن أنه لاحظ لغير العرب في البلاغة والبيان ! ثم ما هو الدليل على انفراد العرب بالإفصاح؟ لا شيء إلا أن للأسد خمسين ومائة اسم ، وللسيف خمسمائة ، ولحية مائتين ، وما شاء الله كان ! وقد شاع هذا الغلط عدة قرون وكان من آثاره أن سأل الرشيد الأصبغى عن شعر لابن حزام المعلى ففسره فقال الرشيد :

يا أصبغى ! إن الغريب عندك لغير غريب ! فقال ”يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً“ وكان من آثاره أيضاً أن أفرد صاحب ابن عباد هذه المترادفات بكتاب !

ولقد جرى ذكر هذه (الثروة اللغوية) فى درس الدكتور طه حسين فأشار الى أن هذا غير طبيعى أو أنه على الأقل إسراف . وهو يرجح أن كثرة المترادفات الى هذا الحد ليست إلا أثراً من عبث الرواة ولعبهم بالجماهير . ويرى أنها ترجع الى السياحات العديدة التى كان

يرمى بها الرواة واللغويون الى جمع ما تفرق في أحشاء البادية من مختلف الصفات والأسماء ليعودوا الى الحواضر مثقلين بمادة المكثرة والتعجيز ثم لا يتحرجون من أن يقولوا إن العرب تعرف للأسد خمسين ومائة اسم وللسيف خمسمائة وللحبة مائتين .

فمن هم هؤلاء العرب أيها الناس؟ أليسوا في أنفسكم كل من أقلت الجزيرة العربية من شتيت القبائل وعديد الأحياء؟ ولكن ألا تذكرون أننا حين نذكر لغة العرب لا نريد غير لغة قريش التي نزل بها القرآن؟ أفستطيعون أن تثبتوا أن قريشا عرفت للحجر سبعين اسما وللكلب ما لا ندري كم تعدون من الأسماء؟

١٠ — وقد غفل ابن فارس عن تأثير الاقليم في اللغة العربية فظن التعابير التي انفرد بها العرب — لما تأثر به أسماعهم وأبصارهم — فضلا تطول به لغتهم سائر اللغات . وكذلك يرى أنه لا يمكن لغير العربي أن يعبر عن قولهم (رحب العطن ، وغمر الرداء ، ويخلق ويفرى . وهو ضيق الحجم . قلق الوضين . وهو ألوى بعيد المستمر . وهو شراب بأنقع . وهو جذيلها المحكك وعذيقها المرجب . وعى بالاسناف) .

ولو تأمل ابن فارس قليلا لعرف أن هذه التعابير ليست إلا تمثيلا لما يراه العرب في باديتهم من الحيوان والنبات والجماد ، وأنه من المعقول أن يكون للهند والفرس والروم تعابير كهذه أخذت مما تقع عليه أبصارهم من أنواع الموجودات ولا يستطيع العرب أن يسفوها لأنها وقعت على غير ما يألون .

٥ - النقد الأدبي عند ابن شهيد

سر البيان — خصوصية ابن شهيد وحقده على المعلمين في قرطبة — مذهب الجاحظ في تعليم البيان — كيف تكون ملاحاة النحو وفصاحة الغريب — الأنساب والقربات بين الحروف — ربط القوافي والأوزان بالمعان — كيف كان الشعر ينفع المجتدين عند البقالين والقصابين — هل في مقدور كل بلّغ أن يصل إلى كل غرض — البلاغة سياحة نفسية من المتكلم للخطاب — أثر الطبع في البلاغة — هل لجمال الأعضاء دخل في جمال النفوس ؟ — وهل كان الجاحظ لدمامته من أهل الغفلة والحق ؟ — كيف نزن أقدار الرجال ؟

١ — أشرنا عند الكلام على رسالة "التوايع والزوايع"^(١) إلى ما كان يراه ابن شهيد من أن البيان نفحة سماوية ولا صلة له بالنحو والتصريف وعرفة الغريب، فلنذكر الآن أن هذا الرأي كان من المسائل التي شغل بها ابن شهيد وأخذ يبدئ فيها ويعيد كلما تكلم عن النقد والبيان . ومن الخير أن ننص هنا على أن ابن شهيد لم يكن في درس هذه المسألة مخلصا كل الإخلاص، فقد تبين لنا بعد مراجعة ما كتبه في ظروف مختلفة أنه كان حريصا على تحقيق جماعة من اللغويين والنحويين الذين عاصروه في الأندلس وناصبوه الخصومة والعداء . وقد اجتهد في أن يخفي علينا تحامله على رجال النحو والتصريف والغريب ويصبغ أحكامه بصبغة التعميم، ويبعد عن أذهاننا ما يريد من التخصيص، ولكنه غلب على أمره فصيح بشكواه من قلة إنصاف النحويين له وتسلمتهم عليه وإسرافهم في ثلبه . فلنفهم هذا جيدا قبل عرض آرائه لنذكر أن أقواله مشربة بالضغن والحقده وأنه لا ينبغي أن نتخذها أساسا صالحا لتقدير العلوم العربية من نحو وصرف وأشتقاق: لأن تلك العلوم ضرورية، وليس من النفع أن نوافق ابن شهيد على الاستهانة بها وتحقير أهلها، وإن كنا نعرف أنها لا تكفي وحدها لمنح طلاب الأدب ملكة البيان .

(١) راجع تحليل رسالة التوايع والزوايع في باب « الأخبار والأفايص » من الجزء الأول .

٢ — يتحدثنا ابن شهيد أن قوما من المعلمين في قرطبة ممن أتوا على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة يمتحنون عن قلوب غليظة كقلوب البعران، إلى فطن حمئة، وأذهان صدئة، لا منفذ لها في شعاع الرقة، ولا مدب لها في نور البيان، سقطت إليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهم القرد اليماني من الرقص على الايقاع والزمر على الألحان، فهم يصرفون غرائبها تصرف من لم يرزق آلة الفهم، ولم يكن له آلة الصناعة، كالخمار الذي لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رأسه واستدارة حافره، وأنه لو جاز لخمار أن يفنى :

ما بال أنجم هذا الليل حائرة أضلت القصد أم ليست على فلك

لما جاز أن يوقع بالمضرب على الأوتار، ويرنم الوتر في مجرى السبابة والبصر فيبطل بنشيدته، ويولول في ضربه، وكذلك حال المتعلمين في قرطبة على رأى ابن شهيد^(١).

٣ — وفي موطن آخر نراه يندد بالمعلمين ويصفهم بأوصاف منكرة ثم يقول :

”وما علم من خلق هذه العصاية إذا لمحتنا أبصارهم قابلونا بالملق، وهم منظوون على الحسد والحق، فإذا جمعنا المحافل، وضممتنا المجالس، تراهم الينا مبصبين، وعن الأخذ في شيء من تلك المعاني واقفين، وإنما يتبين تقصير المقصر، وفضل السابق المبرز، إذا اصطكت الركب وازدحمت الحدق، واستعجل المقال ... الخ“^(٢).

٤ — ولا يكتفى ابن شهيد بمثل تلك الخملات في تحقير المعلمين، بل يضيف قول الجاحظ :

”إنا إذا أكثرينا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهما في الشهر، ولو أكثرينا من يعلمهم البيان لما قنع منا إلا بألف درهم“ وقد أمكنت هذه الكلمة ابن شهيد من إعلان رأيه في كتاب البيان والتبيين الذي ألفه الجاحظ وهو في رأيه كتاب لم يكشف فيه ”عن وجه التعليم وصور كيفية التدريج“ ليرى القارئ كيف يكون وضع الكلام وتنزيل البيان،

(١) الذخيرة ص ١٢٢ ج ١ (٢) ص ١٢٤ (٣) ١١٨

وكيف يكون التوصل الى حسن الابتداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء . ومن رأى ابن شهيد أن الجاحظ " استمسك بفائدته ، وضمن بما عنده غيره على العلم ، وشحا بثمره الفهم " لأنه عرف « أن النفع كثير والشاكر قليل » ولذلك كان كتابه في البيان موقوفا على أهله ومن كرع في حوضه ، أما الجاهل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه على الاطلاق .

٥ — ونحن لانوافق ابن شهيد على ما رآه في كتاب البيان ، ونفهم أن الجاحظ لم يخف شيئا عن عمد ، وإنما نفترض أن تلك كانت طريقة الجاحظ في التأليف : فهو ينتقل من فن الى فن ، ومن كلام الى كلام ، جريا على طريقته في تسطير كل ما يمر بخاطره من ألوان الأدب والعلوم لأيسر المناسبات . وما نكاد نتصور أن التعليم كان من مبتغيات الجاحظ حتى يهتم بالترتيب والتبويب ، وإنما تمثله رجلا يكتب لنفسه قبل كل شيء ، ويرضى شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات من القدماء الذين كانوا يخشون على العلم من الضياع ويكفهم أن يدونوا ما يسمعون أو ينقل اليهم من مختلف الأقوال والآراء والشواهد والأمثال .

٦ — وليس إنحاء ابن شهيد على النحو والغريب معناه أنه ينكر قيمة ذلك في البيان ، كلا ، وإنما يحتم أن يختار الكاتب أملح النحو وأفصح الغريب . وملاحظة النحو هذه لم أرها عند أحد غير ابن شهيد ، وهو يريد بها اختيار الوضع النحوي الذي يساعد على أداء المعنى ، فقد يكون الكلام مستقيما من الوجهة النحوية ولا يكون مستقيما من الوجهة البليانية ، فان البلاغة في الواقع تبنى على سلامة التركيب .

والتركيب السليم لا يراد به التركيب الخالي من الغلط حين يراد وزنه بالموازين النحوية ، وإنما هو التركيب الذي يستوفي الدقائق المعنوية التي يهتم بتقييدها علماء المعاني . أما فصاحة الغريب فهي عند ابن شهيد وضع اللفظة الغريبة في موضعها بحيث لو وضعت مكانها كلمة مألوفة لتطرق الى المعنى شيء من الإخلال . ولنتظر كيف يقص علينا ابن شهيد بعض ما كان يقع له مع تلاميذه في هذا الباب :

« جلس إلى يوسف الاسرائيلي وكان أفهم تلميذ مرّ بي وأنا أوصي رجلا عزيزا على من أهل قرطبة وأقول له : ان للحروف أنسابا وقربات تبدو في الكلام . فاذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخابر ، أفهمت ؟ قال :

إي والله ! قلت له : وللعربية إذا طلبت ، وللفصاحة إذا التمس ، قوانين من الكلام من طلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر ، أفهمت ؟ قال : نعم . قلت : وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه . قال : أجل . قلت أفهم شيئا من عيون كلام القائل :

لعمرك إني يوم بانوا فلم أمت خفانا على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها لناظرها غصن يراح مطير

فقال : إي والله ! وقعت (خفانا) موقعا لذيذا ، ووضعت (رميت) و (متن الطريق) موضعا مليحا ، وسرى (غصن يراح مطير) مسرى لطيفا . فقلت له : أرجو أنك تنسيت شيئا من نسيم الفهم فأغد على بشيء تصنعه .

قال ابن شهيد : «وكان ذلك اليهودي ساكتا يعني ما أقول فعدا ذلك القرطبي فأنشدني :

حلفت برب مكة والجبال لقد وزنت كروبي بالجبال
في أبيات تشبه وجاء اليهودي فأنشدني :
أيهم ركبأنهم منعجا وقد ضمنوا قلبك المودجا

وأستمر إلى آخر القصيدة فأتى بكل حسن ، فقال لي ذلك القرطبي : شعر اليهودي أحسن من شعري ! قلت ولا بأس بفهمك إذ عرفت هذا . ولم يزل يتدرب باختلافه إلى حتى ندى ثربه ، وطلع عشبه ، ثم تفتح زهره ، وضاع عقبه . ورآني أستعمل وحشي الكلام

في موضعه ولم يشعر بحسن الموضع فأستعمل شيئاً منه وعرضه على . فقلت : استره ! فقال : تبخل على به ! وعرضه على ابن الإفليل فقال له : تنكب هذا الكلام . فقال له : إن أبا عامر يستعمله ! قال : يضعه في موضعه وهو أدرب منك^(١) .

وهذا كلام جيد ، وأجوده مانص فيه على أن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام ، فإذا جاور النسيب النسيب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصيغة . وهذه الفكرة الدقيقة ليست من مبتكرات ابن شهيد فقد رأيناها قبله منسوبة إلى ابن العميد حين حدثنا صاحب في مقدمة كتابه عن مساوي المتنبي أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد « فانه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن^(٢) » .

وبذلك تكون كلمة ابن العميد أسبق وأشمل من كلمة ابن شهيد ، لأن ابن العميد يربط القوافي والأوزان بالمعاني ، فليس كل وزن بصالح لكل معنى ، لأن بعض القوافي والأوزان أرق أو أضخم من بعض ، كما أن بعض الألفاظ والمعاني ألطف أو أجزل من بعض ، وفطنة الشاعر والكاتب هي التي تؤلف بين المعنى وبين لبوسه من ألفاظ وحروف وقواف وأوزان .

٧ - ويرى ابن شهيد أن البلاغة تختلف باختلاف أقدار المخاطبين ، ومعنى هذا أن البلاغة صلة نفسية بين المتكلم والمخاطب ، فهي ترجع إلى فهم المتكلمين لنفوس المخاطبين ، وعلى ذلك لا يكون أساس بلاغة الكلام صلاحيته لأن يلقى إلى جميع الناس في جميع الأحوال ، وإنما بلاغة الكلام أن يبلغ بصاحبه إلى الغرض الذي يرمى إليه عند الخطاب . ويقول في ذلك :

« وربما لاذ بنا المستطعم باسم الشعر ممن يحبط العامة والخاصة بسؤاله فيصادف منا حالة لا تتسع في كبير مبرة فنشاركه ونعتذر له ، وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصايين ، فإذا قارفت أسماعهم ، ومازجت أفهامهم ، در حلبهم ، وانحلت عقدهم ، وجل شخص

(١) ص ١١٨ و ١١٩ من الذخيرة . (٢) مقدمة كشف مساوي المتنبي .

(٣) الخطب : السؤال ، من خبط الشجرة شذها ثم نقض ورقها لتسقط منها الثمرة .

ذلك البأس في عيونهم : فما شئت إذ ذاك من خبرة وثيرة يحشى بها كفه ، ورقبة سمينة تدفن في مخلاته ، ومن كوز فقاع يصب في فمه ، وتينة رطبة يسد بها حلقه ، وسنو سمكة ودكة تدس تحت لسانه ، وفالودجة رطبة يحنك بها حنكه ، فلا يكاد البأس يستم ذلك حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يمسحها ، راغبا في أن يكشف له السر الذي حرك العامة فبذلت ما عندها له وبادرت برفدها إليه ^(١) .

وتلك قصة نعرف منها كيف كان الشعر الفصيح ينفع من يستجدون البقالين والقصايين في الأندلس ، وكيف كانت تلين اللغة لمثل ابن شهيد حتى يخاطب بها في بلاغة جميع الطبقات . والمهم أن نعرف رأى صاحبنا أبي عامر حين طُلب منه كشف السر الذي حرك العامة فجاءت بعد بخل ، وهشت بعد جمود ، وهو يقول في الجواب :

”وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشحذ لا نستطيعه : لأن هذا الذي يريد منا تعليمه هو البيان وبين فكره وبينه حجاب . ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان“ ^(٢) .

٨ - وابن شهيد يرى أنه ليس في مقدور كل بليغ أن يصل الى كل غرض : فهناك ناس بخلاء من الكبراء يعسر تحريكهم الى البذل بحيث لا ينجح فيهم تقريظ ، وإذ ذاك ”يحتاج الى أنقرب ما يكون من الذهن وأوسع ما يكون من الحيلة . إلا أن هذه العصابة لا يمكن لدى النباهة تحريكها ولا بد لها من طبقة يكون لها في العين بعض التصويب والتصعيد ، ولهذا صار سب الاشراف عسيرا عويضا فانك تجدهم يتدحرج عنهم قبيح المقال ، ولا يضعفهم خبيث الكلام ، لقوة بنيانهم وثبات أركانهم ، فهدم بنيان هؤلاء صعب“ ^(٣) .

وهذا الذي يقوله ابن شهيد يحتاج الى تحديد : فن الحق أن هناك مواطن يحار فيها البليغ وقد تبدو البلاغة في بعض الأحيان لونا من اللغو والفضول ، لعجز الكاتب والشاعر والخطيب عن غزو بعض النفوس ، ولكن في تلك المواطن وحدها يحتاج الى بيان الكتاب والخطباء

والشعراء، وبقدر فهم البليغ لما تعقد واستبهم من بعض الأهواء والميول يكون نجاحه في درك ما يتعسر على سواد المنشئين، لأن لكل شخصية مهما مكر صاحبها وخبت ولؤم جوانب من الضعف ينفذ إليها القول حين يتصل المنشئ بأسرار من يخاطبهم من أهل الشح والكنود؛ وسر البلاغة لا يظهر إلا في المواطن التي تبدو مفروغا من الكلام فيها، وميئوسا من فائدة العود إلى شرحها وتفصيلها، فان المنشئ لا يعجز إلا حيث يكون الحق جوق بداهة وظهور بحيث يظهر كل بيان وكأنه حديث مرّدد معاد، عند ذلك يعرف البليغ الموفق كيف يحول المسائل الظاهرة إلى مشا كل عقلية وروحية واجتماعية، فينقل قلوب الجاحدين وعقولهم إلى جواء من البحث والتفكير ويقفهم موقف الحيرة والتردد بين الخير والشر والبر والعقوق. فليس البليغ هو من يأتي فقط بالبدع الطريف، ولكن البليغ هو من يحول الموضوعات العادية إلى شئون جديدة طريفة لتحلل فيها عزائم أهل الشح أو تنهض ضمائر أهل الجمود. وليس من الصحيح أن هناك ناسا يصعب هدم بنيانهم، ولكن الصحيح أن هناك ناسا لا يهدمون لأنهم يهاجمون بمعاول محطمة من الهجو القبيح.

والبليغ يستطيع أن يصل دائما من طريق علم النفس إلى مكان من الضعف من نفوس الأقوياء الذين يتوقنون أمام دعوات الخير والبر والاحسان، ففي كل نفس مهما لؤمت جوانب خيرة غافية يقدر على إيقاظها البارعون من أهل البيان.

وجملة القول في هذا المعنى أن البلاغة ضرب من السياسة النفسية، ومن الساسة من تكون نظراتهم أشد خطراً على أعدائهم من الجيوش والأساطيل، وكذلك البليغ يكون في أحيان كثيرة شراً مستطيروا على المعاندين من يخاطبهم أو يرأسهم أو يحاورهم في جد أو في هزل، من قرب أو من بعد، لأن البلاغة ليست إلا نقل ما في الروح من حب أو حقد، أو عتب، أو ملام، وصب ذلك كله في رفق أو عنف في أفئدة من تخاطب أو تكتب من عدو أو صديق. وذلك يفرض أن تفيض عنا البلاغة ونحن في أعلى درجة من درجات التيقظ والقوة، وفي أسوأ أوج من الغضب أو الحنان، بحيث تكون أنفاسنا شواظا يتلظى حين نهجم

ونفثك ، ونسباً يتأرجح حين نحنو ونعطف . أما وضع الكلام في ذهول ومن غير درس
لأنفس المخاطبين فهو العي الذي استعاذ منه الخطباء ، والإلغام الذي تهيب عواقبه الشعراء .
ومن الناس من يظن أن البلاغة ليست إلا سواد المداد في بياض القراطيس !

٩ - على أن ابن شهيد لم يفقه أن يقرر أن سر البلاغة يرجع إلى الطبع قبل أن يرجع
إلى استيفاء مسائل النحو وحفظ كثير الغريب . وعنده أن البلغاء يتفاوتون بقدر ما يتفاوت
تركيب أنفسهم مع أجسامهم :

” فمن كانت نفسه مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً يُطلع صور الكلام والمعاني
في أجمل هيئاتها وأروق لباسها . ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من أصل تركيبه كان
ما يطلع من الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في التمام والكمال وحسن الروق .

” فمن كانت نفسه هي المستولية على جسمه فقد تأتى منه في حسن نظام صور رائعة تملأ
القلوب وتتعش النفوس ، فإذا فشت لحسنها أصلاً لم تجده ، ولجمال تركيبها وجهها لم تعرفه ،
وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن ، كقول امرئ القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر عالى

فهذه الديباجة إذا تطابت لها أصلاً من غريب معنى لم تجده ، ولكن لها من التعلق
بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى^(١) .

وهذا الكلام يمثل جانباً من جوانب البلاغة عند ابن شهيد ، وهو جانب الطبع . ومعنى
ذلك أنه قد يتفق لنا أن نعجب بفقرة من النثر ، أو بيت من الشعر ، بدون أن يكون لما
أعجبنا به معنى غريب ، وإنما سر إعجابنا يرجع إلى ما طبع به الكلام من شرف الطبع وسمو
الروح . والجانب الثانى عند ابن شهيد هو المعنى ، أما اللفظ فهو عنده قالب ولَبَوس لا قِوام
له بغير المعنى ، وهو لذلك يوصى الناقد بأن ” يفتش عن شرف المعانى ، وينظر مواقع البيان ،
ويحترس من حلاوة خدع اللفظ^(٢) ” .

ويقتر أن البليغ "إنما يستحق اسم الصناعة بتقحم بحور البيان، وتعتمد كرائم المعاني" ولا يتم له ذلك إلا بأن "يمتطى الفصل ويركب الحد، ويطلب النادرة السائرة وينظم من الحكمة ما يبقى بعد موته"^(١).

وكل هذا جدير بالتأمل والدرس ففيه شرح لما استغلق على النقاد أزمانا كثيرة، ألسنا نرى في بعض الرسائل والخطب والقصائد نماذج فائقة، ودى مع ذلك خلو من غرائب المعاني؟ فلنعرف الآن أن السر في إعجابنا بأمثال تلك النماذج مرجعه الى الطبع والروح. ونحن نستطيع تحليل ذلك بدرس من نعرف من الناس، فهناك أفراد غناؤهم قليل، ومحصولهم ضئيل، ومع ذلك تُفتن بهم أحيانا ونراهم أهلا للعب والإعجاب. وهذا هو سر ذبوع كثير من الآراء الخفيفة الوزن، القليلة العمق، فانها قد تصدر عن فطر سليمة، وطبائع شريفة، ينقصها العمق ولكنها غنية بالنبل والصفاء.

١٠ — ولا يقف ابن شهيد عند اشتراط شرف النفس، وكرم الطبع، بل يتعدى ذلك الى الصفات الجسمية: وهو يرى الأجسام من صور النفوس. يوضح ذلك قوله في المعلمين بقرطبة: "يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة. وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة، من فساد الآلة الروحانية، والخادمة لآلات الفهم، الباعثة لرقيق الدم في الشريان الى القلب وزيادة غلظ أعصاب الدماغ وتقصانها عن المقدار الطبيعي، وما يعين على ذلك بالحس وطريق القراسة من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه، ونسوء القمحودة^(٢)، والتواء الشدق، وخزر العين، وغلظ الأنف، وانزواء الأرنبة. فنستعبد بالله أن لا يشوه خلقه قلوبنا وجرم أجبادنا"^(٣).

وهذه الأحكام متصلة أوثق اتصال بعلم النفس وتعلم منافع الأعضاء، فليس من شك في أن للجسم تأثيرا شديدا على الروح حتى في صورته. والصور المقبولة تبعث في أصحابها روح الثقة بالنفس. وليس من المجازفة في شيء أن نتخذ من ذلك تعليلا لمفوات العظماء: فهم في الأكثر أصحاب أهواء وشهوات، وذلك مظهر من مظاهر الاتساق بين عافية البدن وشباب الروح.

١١ — وابن شهيد وفي لمبدئه في ربط الصلة بين النفس والأعضاء، وقد حمّله ذلك على النيل من الجاحظ والغص من قيمته العلمية والأدبية، ورميه بالغفلة والحق . وقد خطأ أبا القاسم الأفليسي في تقديمه الجاحظ على سهل بن هارون . ومن رأى ابن شهيد أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات وإبراهيم بن العباس إما أن يكون لأنه كان مقصرا في الكتابة وجميع أدواتها ، أو لأنه كان ساقط الهمة ، أو لأن إفراط بحوظ عينيه قعد به : لأنه لا بدّ لللك من كاتب مقبول الصورة تقع عليه عينه ، وأذن ذكية تسمع منه حسه ، وأنف ذكي لا تُدَمّ أنفاسه عند مقاربتة له . ولذلك استحسّنا من الكاتب أن يكون طيب الرائحة ، سليم آلات الحواس ، نقي الثوب ، ولا يكون وسخ الضرس منقلب الشفة ، مكحل الأنفوقور ، وضر الطوق .

وقد شعر ابن شهيد بأنه من التحامل أن يرمى مثل الجاحظ بنقص في أدوات الكتابة فقال :

”ربما أنكر قولنا في شرطه جمع أدوات الكتابة قليل : وأى أداة نقصت الجاحظ ؟ فنقول : أول أدوات الكتابة العقل ، ولا يكون كاتب غير عاقل ، وقد نجد عالما غير عاقل ، وجدليا غير حصيف ، وفقها غير حليم . وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهل أكثر من ينسبه الى الجاحظ ، ولو شاهد الجاحظ سهلا يخادع الرشيد ملكا ويدبر له حريا ، ويعانى له إطفاء جمره فتنة ، ناهضا في ذلك كله بعقله وتجربة علمه لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال ، في صفة غراميل البغال ، وغير الكلام في الجرذان ، وبنات وردان ، ولعلم أن بين العالم والكاتب فرقا^(١) وهذا الكلام يعطى لابن شهيد صورة غير مقبولة ، فالأدب والعلم عنده من وسائل العيش والحظوة لدى الملوك ، وبمقدار نجاح الكاتب في دنياه يكون فضله . وهذا خطأ مبين .

قد تكون دمامة الجاحظ هي التي قعدت به كما قصّر ابن شهيد نفسه ثقل سمعه ، وكما تخلف صاحبه الأفليسي لورم أنفه . وإذ ذاك يكون للجاحظ عذره المقبول .

ولكن هل خطر ببال ابن شهيد أن هناك اختلافا بينا في تركيب النفوس ؟ إننا نعرف بالتجربة أن للعقول شهوات ، فقد تكون السياسة أشهى ما يسمو اليه أمثال سهل بن هارون ولكن لا ريب في أن العلم أيضا شهوة ، وكان الجاحظ مفتونا أشد الفتنة بدرس علم الحيوان ، وكان كذلك مفتونا بدرس طبائع الناس وغرائزهم في مختلف الطبقات . فليس من العيب أن يتم بالصغائر في العلوم لأن العلم في أصغر جزئياته لا ينال من العالم غير الإكبار والإجلال . إن من العدل أن تزن الأمور بميزان آخر غير النجاح المؤقت الذي يظفر به الكتاب السياسيون : يجب أن تزن أقدار الرجال بما يبذلون من الجهود في أعمالهم الأدبية والعلمية ، وإذا ذاك تمكن الموازنة بين ما عمل سهل بن هارون في ميدان السياسة وبين ما عمله الجاحظ في ميدان العلم ، أما الموازنة بين حظوظهما الدنيوية فباب من الضلال . وياويل أهل الفضل إن قيسست أقدارهم بمقياس ما يملكون من دراهم معدودات !

٦ - أبو بكر الباقلاني^(١)

١ - لم يصل إلينا من آثار أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني إلا كتابه «إعجاز القرآن» وفي بقاء هذا الكتاب مع ضياع سائر ما وضعه المؤلف دلائل على أن معاصريه كانوا اهتموا بنسخه ومدارسته فسلم بذلك من الضياع . ونحن وإن لم نر من مؤلفات الباقلاني غير كتابه في إعجاز القرآن فانا نستطيع الحكم بأنه خير كُتبه : لأنه في موضوع خطير جدا كان يستوجب من مثله حماسة واستعدادا بالغين . فقد كان بعض الناس في عصره يرتابون في إعجاز القرآن وكان في ارتيابهم ما يسوقه إلى درس الإعجاز من جميع أطرافه ، ودفع الشبه التي كان يذيعها الملحدون في الحواضر الإسلامية . وإنه ليمثل لنا الأزمة العقلية التي أطبقت على معاصريه إذ يقول :

« ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه ، وأولى ما يلزم بحثه ، ما كان لأصل دينهم قواما ، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما ، وعلى صدق نبيهم برهانا ، ولمعجزته ثبوتا وحجة . لا سيما والجهل ممدود الرواق ، شديد التفاف ، مستول على الآفاق . والعلم إلى عفاء ودروس ، وعلى خفاء وطموس ، وأهله في جفوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشليم ، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأخذ في سبله . فالتناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشيد ، وآخر مصدود عن نصرته مكدود في صنعته ، فقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين في أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين . وقد قل

(١) ولد الباقلاني في البصرة ، وسكن بغداد ، وبها كانت وفاته يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ وكان من كبار أهل السنة . ورواه بعض معاصريه بقوله :

أنظر إلى جبل تمشي الرجال به وأنظر إلى القبر ما يحوى من الصلف
وأنظر إلى صارم الإسلام معتبدا وأنظر إلى درة الإسلام في الصدف

والباقلاني : نسبة إلى الباقل بتشديد اللام وقصر الألف . وفيها كلام تجده في وفیات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٠

أنصاره، واشتغل عنه أعوانه، وأسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره : فمن قائل إنه سحر، وقائل يقول إنه شعر . وآخر يقول إنه أساطير الأولين ... الخ^(١) .

وليس في هذه الفقرة شيء جديد فإن شكوى الزمان من الظواهر الانسانية التي يجدها المطلع في أكثر ما اثر عن القدماء والمحدثين . ورجال الدين خاصة يكثرون من التبرم بمعاصريهم ووصفهم بالزيف والاحاد والفسوق . فليس معنى هذا الكلام أن أهل القرن الرابع كانوا أكثر الناس شبهات وأضاليل ، ولكن معناه أنهم كانوا كذلك في نفس المؤلف ، وفي هذا ما يدفعه الى التأهب لمناضلة المرتابين في إعجاز القرآن .

٢ — ونحب في بداية هذا الفصل أن نحدد موقفنا في درس كتاب الباقلاني عن الإعجاز . ونقرر — في صراحة — أننا لا نريد عرض مسألة الإعجاز على بساط البحث من جديد . وإنما يهمنا أن نتبين كيف كان القدماء يفهمون النقد وكيف كانت مذاهبهم في وزن الكلام البليغ . فكتاب الباقلان في نظرنا صورة للحياة الأدبية في أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع . وليس حجة في تقدير القرآن . لأن وزنه أخف من أن يفصل في تلك المسألة الدقيقة : مسألة الكلام المعجز الذي يسمو ببلاغته على ما يتطلع اليه فرسان الفصاحة والبيان . وهناك جانب آخر لا نذكر أن من الباحثين من أشار اليه : وهو جمع المحاولات الأدبية التي حاولها خصوم القرآن ، ففي تلك المحاولات صورة من صور النقد لها قيمة في أنفس من يعنون بتاريخ الآداب . ونحن كمؤرخين للأدب يهمنا أن نستقصى جهد الطاقة ما تناثر هنا وهناك من محاولات الناقدين بدون تفريق بين الخطأ والصواب . فإن ذلك في جملته يمكننا من درس الحياة الأدبية دراسة علمية بعيدة عن مطارح الأوهام والظنون .

٣ — من ذلك ما حدثنا الباقلاني أنه نُقل اليه أن من خصوم القرآن من (جعل يعدله ببعض الأشعار ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضل عليه)^(٢) — ففي

هذا الخبر ظاهرة أدبية خطيرة ينبغي أن نقيدها أنها وقعت في القرن الرابع. ولو أن الباقلاني بين لنا كيف كانت تلك المعادلات والموازنات لاستطعنا أن نعرف إلى أي حد كانت تلك المحاولات تتصل بتاريخ النقد الأدبي، ولكن ما صنعه الباقلاني نفسه في نقد امرئ القيس والبحترى يحدد لنا ذلك المنهج بعض التحديد: فقد عرض لأشهر قصيدة نسبت إلى امرئ القيس وهي المعلقة فنقدتها بيتا بيتا بعد أن أشار إلى أنه لا يرتاب في جودة شعر امرئ القيس ولا يشك في براعته وفصاحته وما أبدع في طرق الشعر من أمور أتبع فيها كذكر الديار والوقوف عليها وما يتصل بذلك من التشبيه الذي أحدثه والتلميح الذي يوجد في شعره والتصرف الكثير الذي يصادف في قوله والوجوه التي ينقسم إليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومناة ورقة . ولم ينقد الباقلاني معلقة امرئ القيس إلا ليبين للقارئ أن تلك القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتاً بيناً في الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسمل والاسترسال والتوحش والاستكراه: فهي على ذلك كلام يختم من الصخر تارة ويذوب تارة. ويتلون تلون الحرباء، ويختلف اختلاف الأهواء، ويكثر في تصرفه اضطرابه وتتقاذف به أسبابه . ومثل هذا الكلام لا يقارن بالقرآن الذي يصفه بأنه "قول يجري في سبيله على نظام، وفي وصفه على منهاج، وفي وضعه على حد، وفي صفاته على باب، وفي بهجته ورواقه على طريق مختلفة مؤلفة، ومؤلفة متحدة، ومتباعدة متقاربة، وشارده مطيع، ومطيعه شارد، وهو على متصرفاته واحد : لا يستصعب في حال ولا يتعقد في شأن" .

٤ - ونتيجة هذا - من وجهة تاريخية - أن الباقلاني ومعاصره رأوا أنه في الامكان أن يوازنوا بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن. وإن لم يتخذ الموضوع وسيلة ذلك أن تبين محاسن القصيدة ومساوئها ويشرح فيها المبتذل والطريف والمقبول والمرذول ثم يقابل ما سلم فيها بالسورة التي توازيها في الكمية ليظهر ما في السورة من المحاسن التي لم يشنها ضعف ولا تهافت ولا فضول .

وهذا النحو من النقد يعدّ من المحاولات الباهرة في الأدب العربي . ولا عيب فيه إلا التحامل والإسراف . فان خصوم القرآن كانوا يأبون إلا الوصول إلى شواهد يحكمون لها بالفضل . والباقلاني كان يعمد إلى القصائد التي يعرف فيها الضعف ليصل دائماً إلى الحكم للقرآن بالفضل . وقد بلغ به التحامل أن طعن في قول البحتري :

ما الحسن عندك ياسعاد بحسن فيما أتاه ولا الجمال بجمال

وزعم أن أسلم منه وأبعد من الخلل قول كشاجم :

بحياة حسنك أحسنى وبحق من جعل الجمال عليك وفقاً أجمل

مع أن الذي يفهم الشعر ويتذوقه يحكم بأن بيت كشاجم هذا لا يصح أن يقارن بيت البحتري إلا عند غُلف القلوب . وأغرب من هذا الشطط أن ترى الباقلاني يأخذ في نقد بيت البحتري فيقول :

قوله "عندك" حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلفة . والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء : وفيه شيء آخر لأنه يذكر أن حسنها لم يحسن في تهيج وجده وفي تهيم قلبه . وضد هذا المعنى هو الذي يميل إليه أهل الهوى والحب .

هـ — هذا كلام الباقلاني . وهو كلام سقيم يدل على أنه لم يفهم بيت البحتري على الإطلاق ! وعلى هذا النمط من التحامل أفسد الرجل تلك الطريقة الجميلة : موازنة قصيدة من الشعر بسورة من القرآن . وكيف تنتظر العدل من حكم يكتب صحيفة الاتهام على هواه ؟ إن الذي يوازن بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن يجب عليه أن يكون مستعداً للحكم بالعدل . وهذا لا يتيسر لنا قد يرى من همه أن يبحث عن مساوئ القصيدة ويطمس محاسنها أو يتجاهلها أو يفض من قيمتها . وهو في مقابل ذلك يبحث في البحث عن محاسن السورة القرآنية وإبراز مزاياها ولا يستبج لنفسه التفكير في وضع ألفاظها أو معانيها أو أغراضها أو أسلوبها موضع النقد . وهذا كاف في تجريخ ما هموا به قديماً من الموازنة بين اثنين : أحدهما من الشعر، وثانيهما من القرآن .

٦ — وتقع بعد ذلك مسألة شغل بها أكثر الباحثين في إعجاز القرآن .

وهي إعجاز غير القرآن من كلام الله كالنوراة والإنجيل والصحف الربانية .

ويجيب الباقلاني بأنه لا شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف وإن كان معجزا كالقرآن فيما يتضمن من الأخبار بالغيوب . ويضيف إلى ذلك أنه لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بما وصف به القرآن ولأنه لم يقع التحدى إليه كما وقع التحدى إلى القرآن^(١) .

ومعنى ذلك أن الباقلاني يرى أن غير القرآن من كلام الله لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بذلك . وتكون النتيجة أن نسبة الكلام إلى الله لا تعطيه صفة الإعجاز إلا إذا وصف الله كلامه به وتحدى المعارضين إليه كما تحداهم إلى القرآن .

ونحن نسأل : لماذا لم يصف الله التوراة والإنجيل بالإعجاز ؟ ولماذا لم يمنح تلك الكتب المزية التي منحها القرآن ؟ ؟ .

وقد توقع الباقلاني أن يوجه إليه هذا السؤال . وكذلك عرض لنا رأيا له قيمته في فهم القدماء لخطر اللغة العربية ومقارنتها بما سبقها أو عاصرها من اللغات . وهو يرى أن اللغات التي كتبت بها التوراة والإنجيل لا يتأتى فيها من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز . وإنما يقع فيها التقارب في البيان^(١) .

فإن سأل القارئ : أكان الباقلاني يعرف من اللغات الأجنبية ما يمكنه من الحكم بأن اللغة العربية انفردت من بين سائر اللغات بالتفاضل في وجوه الفصاحة ؟ فإنا نجيب بالنفي .

وهو نفسه يحدثنا بأنه رأى أصحابه يذكرون هذا في سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها من التفاوت ما يضمن التقديم العجيب^(١) .

٧ — وهنا يتطوع الباقلاني بشرح أسرار تفوق اللغة العربية فيقول :

«ويمكن بيان ذلك بأننا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرفه من اللغة العربية وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على نحو ما تتناوله العربية^(١)» .

وهذا المعنى عرض له ابن فارس إذ قال :

« انا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فإين هذا من ذاك وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب^(٢) » .
والفكرة في ذاتها سخيفة : لأن فضل اللغة العربية لا يرجع الى ما فيها من كثرة المترادفات إذ كانت هذه المترادفات من الثروات الضائعة التي لا يحتاج اليها الا عند اللغو والتطويل .
والقرآن نفسه الذي اتفقوا على سموه لم يعتمد على المترادفات في كثير ولا قليل وإنما هو كلام طلق يجرى الى غاية في غير تعمل ولا اعتساف .

٨ — ومن غرائب المقارنات أن المسيو مرسيه استفاد من اجماع علمائنا القدماء على أن كثرة المترادفات من أهم خصائص اللغة العربية بجاء أخيرا وطعن لغتنا طعنة دامية في تقرير مطول قدمه الى وزير المعارف في باريس زعم فيه أن اللغة العربية لغة « مائعة » لا تعرف تحديد الألفاظ ولا الصفات^(٣) .

والمسيو مرسيه غير منصف في هذا الموضوع لأنه في تقريره اهتم بجمع الهنات والعيوب وكان الظن به أن لا يتناسى أن المترادفات التي كان منها خمسون اسما للحجر ومائة للسيف وخمسمائة للأسد ليست مترادفات جمعت من اللغة القرشية وهي أساس لغتنا العربية وإنما هي كلمات « تصبدها » الرواة من مختلف أرجاء الجزيرة حبا في المبالغة والإغراب .

فمن يبلغ الباقلاني وابن فارس ان ما كان عُرة في زمانهم أصبح في زماننا من أعراض الأمراض ؟

(١) ص ٣٤ (٢) الصاحب ص ١٢

(٣) كان ذلك في خريف سنة ١٩٣٠ ونشر التقرير في أحد مطبوعات وزارة المعارف الفرنسية .

وذلك التحمل من جانب البلاقلاني ساقه الى تقرير « أن الشعر لا يتأتى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية وإن كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها البديع ما يمكن ويتأتى في العربية وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية » .

٩ — وهذه التهم التي كان يوجهها القدماء الى اللغات الأجنبية يقدمها الأجانب اليوم الى اللغة العربية : فلغتنا في أذهان كثير من أهل الغرب والشرق لا يتأتى فيها الشعر على ما قد اتفق في الانجليزية والفرنسية والألمانية مثلا « وإن كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة » فسا أعجب ما تشابه التهم على اختلاف الأجيال !

على أن كلام الباقلاني له دلالة ومعناه : فهو صريح في اعتزاز القدماء باللغة العربية ، وإنما لنجد عند الجاحظ أصلا لهذا القول . وهو يتحدثنا بأن الفرس والهند والروم كانت لهم خصائص لم يتفق مثلها للعرب وأن العرب في مقابل ذلك انفردوا بالفصاحة والبيان .

١٠ — وللقارئ أن يذكر أن هذا « الغرور القومي » كانت له مضار ومنافع ، فمن مضاره أنه صرف العرب عن نقل الشعر الفارسي واليوناني ظنا منهم أن في شعر امرئ القيس مثلا غنى عن شعر هوميروس . ومن منفعه أنه أغراهم بالاعتزاز بشعرهم ولغتهم حتى ظنوا أن الاعجاز لا يتأتى وقوعه في غير اللغة العربية التي حسبوها تفردت بالتصرف في الاستعارات والاشارات .

وقد يكون حظ القدماء أبجل من حظنا في هذا الباب . فنحن اليوم نؤمن بأن اللغة العربية كسائر اللغات لا يتفق فيها الاعجاز لذاتها . وإنما يقع الاعجاز حيث تكون العبقرية في القلوب والعقول .

ونؤمن بأن في اللغات ضروبا من التصرف في القول قد لا يتفق مثلها أحيانا للغة العربية ولكنا لم ننقل من الشعر الأجنبي شيئا يقارب ما نقله أسلافنا من الفلسفة الأجنبية وانصرف

كثير من شبانتنا عن دراسة الشعر القديم فخرموا من تراث الأسلاف وكان لهم فيه معين من الفن لا ينضب ولا يفيض .

ووقف المجتهدون في الشعر موقف التردد والحيرة : فلا هم عرب ينسجون على منوال الفرزدق والبحتري والمتنبي ، ولا هم في طبعهم فرنجة يجيدون محاكاة يرون وجوت ولا مرتين .
١١ — وقد جاء في كتاب « إعجاز القرآن » ما يفيد أن القرآن ليس من جنس كلام العرب ؟

فما هي حجة الباقلاني ؟ حجته أن العرب لم يأتوا بمثله وأن منهم من خشع له بدون أن يدرك معناه . ومن أمثلة ذلك أن جماعة بعثوا بعتبة بن ربيعة إلى الرسول — وكان عتبة حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام — فلما وصل إلى الرسول طمعا في أن يأتي أصحابه بما عنده قرأ عليه النبي سورة ﴿ حم . السجدة ﴾ من أولها حتى انتهى إلى قوله : ﴿ فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ .
فوثب عتبة مخافة العذاب .

قال الباقلاني " فاستحكوه ما سمع فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد . فقال له عثمان ابن مظعون " لتعلموا أنه من عند الله إذ لم يهتد لجوابه " .

ذلك ماقرره الباقلاني . وما نحسب أحدا يرتاب في أن هذا محض اختلاق : فانه لا يعقل أن يؤمن الرجل بما لا يفهم . ومن المرجح أن مثل هذه الأقاويل مما وضعه الرواة والقصاص .

ويقول الباقلاني في موطن آخر :

" قد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولقتهم فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سماع القرآن ... وقال تعالى : ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجميا

لقالوا لولا فصلت آياته أَعْجَمِيَّ وعَرَبِيَّ)، فأخبر أنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون في رده إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور وأنه إذا تحذاهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فمعجزوا عنه وجبت المحجة عليهم^(١) .

والقارئ يرى تناقضا بين هذه الفقرة وبين الفقرة التي نقلناها آنفا . وهذا التناقض وقع بين سياقين فصل بينهما بنحو ما نرى صفحة فلباقلاني عذره حين غاب عنه هنا ما أثبتته هناك . خلاصة الفقرة الأولى أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لأنه اتفق لأحدهم أن خضع له بدون أن يستطيع حكاية لفظه أو معناه .

وخلاصة الفقرة الثانية أن القرآن من جنس كلام العرب . ولولا ذلك لاحتجوا في رده بأنه خارج عن عرف خطابهم، أو اعتذروا بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم .

١٢ — ونحب أن نفصل رأينا في هذه المسئلة ونحن نرى أن الفوارق بين اللغات تنحصر في الألفاظ والأساليب: فاللغة تكون غير عربية إذا كانت ألفاظها أو أساليبها أعجمية . وقد يتفق مثلا أن نفتح كتابا تركيا أو فارسيا فنرى إحدى صفحاته تغلب فيها الكلمات العربية أو تكون بعض الجمل في ألفاظ عربية ولكننا لا نفهم شيئا لأن الأسلوب غير عربي .

وقد تكون جملة وضعت في ألفاظ أعجمية ورتبت في وضعها على الأسلوب العربي . ولكننا لانفهمها لأن ألفاظها غير عربية . ومن هنا يتضح أن العرب فهموا بلا جدال ألفاظ القرآن ومعانيه لأنه عربي اللفظ والأسلوب . ولا عبرة بما حكاه الباقلاني من أن بعض العرب عجز عن تأدية ما سمعه من آي القرآن . لأن هذا يخالف المعقول والمنقول ويتناقض ما من به القرآن على منكريه من أنه بلسان عربي مبين .

١٣ - بقى نوع آخر من وجوه التفاضل في الكلام وهو المعنى : ونحن نرى أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما في المعنى من قوة وروح . ومن المتفق عليه أنه لا يكفى أن يكون المعنى صحيحا ليكون الكلام بليغا . ألا ترى أنه لا يوجد أصدق من قول من قال :
كأنتا والماء من حولنا قسوم جلوس حولهم ماء

ولكن من الذى يقيم وزنا لصدق هذا الكلام ؟ إن هذا الصدق هو التفاهة بعينها . وقد رأى بعض النحاة ان البديهيّات لا تسمى كلاما . ومن رأى ذلك البعض أن من يقول " السماء فوقنا والأرض تحتنا " لم يقل شيئا ولا يضاف ما يلفظ به الى الكلام المفيد . وعلى هذا لا يكفى أن يكون الكلام صادقا ليكون بليغا . وإنما يجب أن يكون مع صدقه طريقا يستهوى العقل والقلب . ومن امثلة ذلك قول قريط بن أنيف :

لو كنت من مازن لم تستبح إلى	بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذف لقام بنصرى معشر خشن	عند الحفيظة ان ذلولثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحدا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وان كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشر فى شيء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق الخشيتة	سواهمو من جميع الناس إنسانا
فليت لى بهم قوما إذا ركبوا	شدوا الإغارة فرسانا وركبانا

وهذه القطعة من بدائع الشعر العربى . وهى قطعة خالدة ستظل قوية بارعة ما بقى فى العالم ناس يفهمون سر العربية . ومع هذا لا تستطيع أن تجد فيها ألفاظا يعز على غير قائلها الوصول إليها ، أو أسلوبا فى التعبير يتميز عن غيره من الأساليب . وجمالها كله يرجع إلى دقة المعنى وطرافته وتخير الألفاظ تخيرا يجعلها تتمثل مع المعنى كلمة واحدة . فقوله مثلا :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدا

هذا البيت يمكن رجعه طرافته الى كلمة "أبدى ناجذيه" وكلمة "طاروا" وهاتان ليستا كلمتين وإنما هما المعنى تجسم في لفظين فرضهما السياق . وقوله :

لكن قسوى وان كانوا ذوى عدد ليسوا من الشرفى شئ وإن هانا

فقوة هذا البيت ترجع الى قوله "وان كانوا ذوى عدد" وقوله — "وان هانا" وفيهما أيضا يتجسم المعنى في قوة وروح . وقد بلغ هذا الشاعر أقصى غايات التهكم في قوله :
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهمو من جميع الناس إنسانا

١٤ — وقد تجدد من الشعر ما تحلو معانيه وألفاظه من الروعة الظاهرة . ولكن قوة الروح تصل به الى أسنى غايات الابداع . ومثال ذلك قول حطان بن المعلى يشكو فقره وما وضع القدر في رجليه من قيود الأهل والذرية :

أنزلى الدهر على حكمه	من شاخ عالٍ الى خفيض
وغازى الدهر بوفر الغنى	فليس لى مال سوى عرضى
أبكافى الدهر وياربما	أضحكنى الدهر بما يرضى
لولا بنيات كزغب القطا	رُددن من بعض الى بعض
لكان لى مضطرب واسع	فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا	أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم	لا تمتعت عيني عن الغمض

وقوة هذا الشعر ترجع الى الشاعر لا الى اللفظ ولا الى الأسلوب : ومن ذلك يتضح أن من يزعمون أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لم يفهموا شيئاً من أسرار الإعجاز . ولذلك نراهم يدورون حول الظواهر والمحسنات اللفظية : فيقول بعضهم إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الأسماء والأمثال فبهرهم القرآن لأنه جاء على نمط غير الذى كانوا يعرفون من أنماط الأسماء والأمثال . ويقول آخرون : إن العرب كانوا تارة يسجعون وتارة يترسلون بفاء القرآن بجمع بين السجع والترسل في نظام بديع . ويقول مؤلفو كتاب "المجمل" الذى قررت الوزارة

تدريسه بالمدارس الثانوية : إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الشعر وفنونه وأوزانه وأغراضه بقاء القرآن ففاجأهم بلون من الأدب جديد^(١) .

١٥ — وهذا كما يرى القارئ يرجع الى الناحية اللفظية أو الفنية . ونحن نرى غير ذلك فنرى أن محمدا عليه السلام اجتذب العرب لأنه نبي ولم يجتذبهم لأنه فنان . فالفن الكلامي لم يكن جديدا عند العرب وإنما كان الجديد عندهم أن يأتيهم رجل منهم بأساليب من الفكر والعقل والوجدان غير التي كانوا يألفون . ولو رجعنا الى حزب المعارضة لعهد الرسول لرأيناه لا ينكر إلا ما جاء به القرآن من معان وأغراض . ولم يتعترض مطلقا لما جاء به من ألفاظ وأساليب . فالمعركة كانت تدور رحاها حول ما في القرآن من الدعوة الى توحيد الله عز شأنه وإفراجه بالقدرة والجبروت . ولو تأملنا قليلا لرأينا أن الذي يروعنا من الشاعر الواحد هو ما تنفرد به بعض قصائده أو أبياته من دقة المعنى أو طرافة الخيال .

ومن هنا صح للنقاد القدماء أن يقولوا عن بعض الشعراء :

”لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس“ .

وصح لهم أيضا أن يقولوا :

”أشعر الناس النابغة إذا رغب . والأعشى إذا شرب . وامرؤ القيس إذا طرب . وعمرو

ابن كلثوم إذا غضب“ .

وهذا كلام دقيق جدًا لأنه يضيف قوة الشعراء الى خصائصهم النفسية والروحية : فالشاعر شاعر لأنه يتحدث عن ذات نفسه وعن ضميره وروحه ووجدانه ، فهو فيما يرجع الى جوهر نفسه أفصح منه فيما يتعلق بنوافل الأغراض .

ولذلك كان هذا الشاعر أبلغ إذا مدح . وذاك أفصح إذا شجب . وذلك أحفل إذا تحمس . ولو استقرينا المنازعات الأدبية في الأمم التي نعرفها لرأيناها ترجع الى المعاني والأغراض لا الى الألفاظ والأساليب . فالنزاع في فرنسا مثلا بين الكلاسيك والرومانتيك كان نزاعا حول الفكرة .

فالكلاسيك يرون أن الأغراض يجب أن تكون موضوعية (objectif) والرومانتيك يفضلون أن تكون الاغراض ذاتية (Subjectif) .

١٦ — وفي مصر والشرق العربي كانت المنازعات الأدبية تدور حول الفكرة فالتزاع الأدبي القديم بين محمد عبده ومعاصريه كان نزاعا حول فكرة . والتزاع بين قاسم أمين ومعاصريه كان يدور حول فكرة . والخصومات العنيفة التي وقعت بين علي يوسف وعبد العزيز جاویش كانت حول فكرة . والتزاع القريب جدًا بين الجديد والقديم كان نزاعا حول فكرة . وما نحسب أحدا ممن هاجموا المنفلوطي كان ينكر أن أسلوبه جيد ولكن الذين هاجموا ادعوا أنهم يحاربون في شخصه فكرة المحافظة على قديم التقاليد .

ولا جدال في أن الألفاظ والأساليب تتلون وتشكل بلون الفكرة التي تسيطر عليها . وعلى هذا الأساس وجد الأسلوب الجزل والأسلوب الرقيق . فالرقة والجزالة من مقتضيات المعاني لا الألفاظ . فالمعنى الجزل له لفظ جزل ، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق . فاذا غلبت الرقة على شاعر مثل البها زهير فرجعها الى الفكرة لأنه شاعر ودیع يعبر عن معاني ودیعة يلهم أمثالها أصحاب الوداعة والرقة من الشعراء المترفين . واذا غلبت الجزالة على شاعر مثل المتنبي فرجعها أيضا الى الفكرة لأنه شاعر طامع في أسمى ما يطمح اليه فحول الرجال وهو الملك والتغلب والسيطرة والسلطان .

أبعد هذا البيان يدهش ناس مما أشرت اليه مرة من أن السلامة والتعقيد والرقة والجزالة والوضوح والغموض كلها صور للنفس الانسانية التي تفصح عما يطيف بها من معاني وأفكار وأراء وأغراض ؟ .

١٧ — وبعد هذا وذاك : أكان القرآن كلاما من جنس كلام العرب أم كان لونا من التعبير يختلف عما عرفوه وألفوه كل الاختلاف ؟ .

هو كلام من جنس كلامهم ومن جوهره ومعدنه . ولكنه يمتاز بقوة المعنى وقوة الروح . فان قيل : ولم تعذر عليهم أن يأتوا بشيء من مثله ؟ فانا نجيب بأن القرآن نفسه فصل

في هذه المسألة حين قال ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأدعوا من آستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ .

فلتأمل جيدا عبارة ﴿إن كنتم صادقين﴾ ففيها الجواب كل الجواب . وهل كان في مقدور العرب أن يكونوا جميعا أنبياء حتى يصلوا الى ما وصل اليه مواطنهم وزعيمهم وسيدهم محمد بن عبد الله الذي صدقت كلمتهم فيه قبل نبوته حيث لقبوه بالصادق الأمين ؟

١٨ — وقد كان من القدماء من يرى أن البلاغة لا ترجع الى المعاني : لأن المعاني في رأيهم يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي . وإنما ترجع البلاغة الى جودة اللفظ وصفائه .

ودليل ذلك عندهم أن الخطب والأشعار الرائعة ما عملت لإفهام المعاني فقط . لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام وإن الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد ، واذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا دخل في جملة المستحسن المملووظ^(١) .

١٩ — أما نحن فنلق العجم والقرويين جانباً ونحصر البلاغة في جمهور المثقفين . ثم نقرر أن الألفاظ ملك للجميع يحدونها حيث أرادوا في المعاجم والدواوين ، ولا يبقى موضعاً للجهد والعنت أو العبقرية إلا المعاني والأغراض . ومن العبث أن نظن أن البلاغة لا تخرج عن المناورات اللفظية . فإن هذا إسراف في تقدير الزخرف وامتهان لصولة العقول . إن الألفاظ في مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب . ولكن المعجز حقاً هو الفكرة . وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزناً للصناعة الفنية . ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تجيء أولاً ويحيى الورق ثانياً كما يقول الفرنسيون .

وقد رأى ناس قول الباقلاني "ليس القرآن من جنس كلام العرب" فقرروا خاطئين أن القرآن يخالف ما درجت عليه البلاغة العربية من حيث الأسلوب . ولو سألتهم عن تحديد معنى (الأسلوب) لعجزوا عجزاً ميبناً ، لأن الأسلوب في رأيها هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب

وروحه وفكرته ومرماه، وليس في مقدور أحد من المتفوقين في علوم البلاغة أن يحدد الأسلوب تحديدا منطقيا يجمع خصائصه ويمنع ما يتطرق إليه من غريب الأوصاف، أو أن يدلنا على خواص أسلوب القرآن دلالة واضحة بريئة من عوارض اللبس والغموض، فإن ألفاظ القرآن كألفاظ كل كلام عربي مبين لا تمتاز باللفظ ولا بالأداء وإنما تمتاز بالمعنى والغرض والروح.

فإن أراد أحد شاهدا على ما نقول فانا نفتح المصحف عرضا بدون تخير ثم ننقل آيات انسأله أن يعين ما جاء فيه غريبا عن الأساليب العربية. ولنختر خمس آيات من مطلع سورة الأنبياء: ﴿أقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون. ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون. قال رب يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم. بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾.

فأين تكون غرابة الأسلوب في هذه الآيات الخمس؟ وأين يكون السياق الفنى الغريب عن الأعراب؟ أليس مرجع الروعة في هذه الآيات إلى المعنى والروح؟ أترونها تمتاز بالسجع؟ وكيف والسجع كان معروفا قبل القرآن؟ أترون ألفاظها متخيرة مثقاة؟ هو ذلك. ولكن كيف يدور اختيار الألفاظ؟ أترون لاختيار الألفاظ مدارا غير موجبات المعاني والأغراض؟ فإن كانت هذه الآيات الخمس لا تكفى فالى القارئ شواهد أخر من القرآن المجيد. يقول الله عز شأنه: ﴿ولا يجرمنكم شتان قوم على أن لا تعدلوا﴾.

وأنا أشهد صادقا أنى ما فكرت في هذه الآية إلا دهشت من سمو هذا النصيح النبيل. فأين يكون جمال هذه الآية؟ أترونها من جنس غير جنس كلام العرب كما زعم الباقلانى؟ هيات! إن ألفاظها تشبه جميع الألفاظ وتركيبها لا يتميز بشئ، عن غيره من التراكيب.

ولكن الجمال هنا فى المعنى الشريف الذى قضى به القرآن وذلك المعنى هو الدعوة الى إثارة العدل فى جميع الأحوال من غضب وسكون وحب وشتان. وقد راجعت صديقا ادبيا فى هذه الآية فأراد أن يلتمس الجمال الفنى فى كلمة (ولا يجرمنكم) فانصح افتراض ذلك الصديق

فانا نسأل أيضا ومن أين ظفرت تلك الكلمة بمعنى الإعجاز. أليس مرجع ذلك الى ربطها بالمعنى الذى اقتضاه السياق ؟ على أنه من الخير أن نسوق الآية كاملة لتبين كيف يمكن أن تكون بعض أجزاء الآية الواحدة أقوى من بعض :

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

ألا ترون إن أنصفتم أن كلمة (اعدلوا هو أقرب للتقوى) تقل في قوتها عن كلمة ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا﴾ فما هو سبب التفاوت ؟ لا يظن أحد أن مرجع التفاوت هو الأسلوب فان القرآن تفرد في رأى مخالفينا بوحدة الأداء والتعبير، فلم يبق من فرق بين صدر الآية وعجزها غير تفاوت المعنى . والتفاوت هنا جاء من أن صدر الآية معنى بكر لا يجرى إلا على السنة الحكماء والأنبياء . على حين نرى عجز الآية يؤدى معنى مفهوما لدى جميع الناس .

ثم لننظر قوله جل شأه ﴿ ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين ﴾ . هذه من غرر الآيات القرآنية : فإين يقع منها الحسن ؟ أترونها فى اللفظ ؟ أترونها فى الأسلوب ؟ وكيف وهى ألفاظ يجردها من يريد فى أسلوب واضح يدركه جميع المخاطبين ويستطيعه جميع الكاتبين . ان الجمال هنا فى الروح العالى : حيث يخاطب الله الآمين وقد ألقى بهم فى نار الجحيم .

٢ . — تترك شواهد القرآن جانبا لأنها من المواطن الشائكة . ونوضح نظريتنا بشواهد

من النثر الجيد والشعر البليغ .

فيل لأعرابى يسوق مالا كثيرا : لمن هذا المال ؟ قال : لله فى يدى !

تأملوا عبارة "لله فى يدى" لتروا انها من نواذر الكلام الجيد البليغ ، ثم انظروا أترون فيها شيئا غير جمال المعنى ؟

ان الأدباء جميعا يحفظون كتاب عمرو بن مسعدة، كتاب التوصية الذى ضربت ببلاغته الأمثال ، فلنذكر به القراء :

”تأبى هذا كتاب معنى بمن كتب له ، واثق بمن كتب اليه ، وأرجو أن لا يضيع حامله بين الثقة والعناية . والسلام“ .

أفترون هنا جديدا في لفظ أو في أسلوب ؟ إن الطرافة كلها تنحصر في المعنى لو تنظرون .

وكتب أحد الأمراء يوصى بعض قواد الجيش :

”وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيالك عدوك عليك“ .

وهذا كلام نادر قلما تجود بمثله القرائح . فإين يكون جماله ؟ أترونه في شيء غير المعنى ؟

وكتب عمر بن الخطاب الى أبي موسى الأشعري :

”عذ مرضى المسلمين ، وأشهد جنازهم ، وبأشر أمورهم بنفسك ، فانما أنت رجل منهم

غير أن الله جعلك أثقلهم حملا“ .

وهي نصائح عادية وأبائها جميعا قوله ” فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم

حملا“ .

أفترون الجمال هنا ، جمال البلاغة ، في شيء غير المعنى ؟

٢١ — والشعر ؟ ما جماله وما عذوبته ؟ أنظروا قول ابن الأحنف :

أتأذنون لصب في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر

إن صدر هذا البيت عادى لا طريف فيه ولكن تأملوا عجزه حيث يقول (فعندكم

شهوات السمع والبصر) ألا ترون انه معنى نادر نفيس وفيه وحده جمال البيت ؟ ألا ترون

أن لفظة ”شهوات“ لم تكن أوفى ولا أدق إلا حيث قرنت بالسمع والبصر وتحاشت ما عداهما

من نعيم الحواس ؟

وانظروا قول قيس بن ذريح :

الى الله أشكو فقد كُئنى كما شكا الى الله بعد الوالدين يتيم

وهذا من الكلام الجيد : فهل كانت جودته في غير معناه ؟ أليس كل ما هنا من روعة

يعود الى تشبيه الزوجة الصالحة بالأم الرؤوم ، وتشبيه العاشق المهجور بالطفل اليتيم ؟

وانظروا قول جميل بن معمر :

فلو أرسلت يوما بثينة تبتغي	يميني ولو عزت على يميني
لأعطيها ما جاء يبغي رسولها	وقلت لها بعد اليمين سليني
سليني مالي يا بئين فأنما	يبين عند المال كل ضنين
فما لك لما خبر الناس أني	أسأت بظهر الغيب لم تسليني
فأبلى عذرا أو أجيء بشاهد	من الناس عدل أنهم ظلموني
لما الله من لا ينفع الود عنده	ومن حبله أن مُدَّ غير متين
ومن هو ذلولون ليس بدائم	على ثقة خوان كل أمين

وقد تقولون : إن جمال هذا الشعر في رفته وعذوبته . ولكن أثرون الرقة والعذوبة إلا صورة ظاهرة لروح الشاعر وما يضمره لمعشوقته من عطف وحنان ؟ ألم أقل لكم إن الرقة والجزالة هي صفات للمعاني تتمثل في أشباح الألفاظ !

٢٢ — ولو أننا عدنا إلى كتب النقد لرأينا أن القدماء كانوا يجعلون المعنى أساس الصورة بحيث يعد الشاعر سارقا للمعنى وإن غير من صورته . ومن ذلك قول البعيث :

أترجو كليب أن يحيى حديثها بخير وقد أعيا كليباً قديماً

أخذه الفرزدق فقال :

أترجو ربيع أن يحيى صغارها بخير وقد أعيا ربيعاً كبارها

وهذا ليس بشيء في جانب المعاني التي تؤخذ من المدح إلى الهجاء ومن النسيب إلى الرثاء وهي كثيرة جداً، ومع ذلك تنبه النقاد إلى أنها سرقة، وتنبه الشعراء إلى جرائمهم حتى روى عن الأخطل أنه قال : " نحن معاشر الشعراء أسرق من الصباغة ^(١) "

٢٣ — وأنا مع هذا كله من أعرف الناس بقدر الألفاظ والأساليب فلست أنكر أن الشعراء والكتاب والخطباء يتفاوتون في الصياغة الفنية، ولكنني أومن قبل كل شيء بالمعنى

والروح . وأرى الألفاظ على لسان الشاعر والكاتب والخطيب تشبه أدوات الحرب وأسلحة القتال في أيدي الرجل: فالسيف هو السيف في يد البطل وفي يد الجبان، ولكنه في يد البطل موت أزرق الناب . على حين نراه في يد الجبان أقل غناء من العصا في يد الوليد، والخيول هي الخيل، ولكن الجواد لا يكون جوادا إلا إذا اعتلى صهوته فارس مغوار، وهو تحت الرجل الرخو أشبه شيء بالحمار "تحت الفلاح العبيط" والمرأة هي المرأة، ولكنها بين يدي الرجل الغزل أنضرت منها في حضرة الرجل البليد ! والكاتب المحيّدون الذين أجمع الناس على احترامهم تتفاوت أيامهم تفاوتاً شديداً: فهم في بعض الأيام من فرسان البلاغة وأعيان البيان، وهم في أيام أخرى يُسَفَقون ويتهاقنون . فما سبب ذلك؟ السبب معروف فإن روح الكاتب يتأثر بمزاجه وظروفه وموضوعه تأثراً بليغاً . فلو كان الأسلوب هو سر البلاغة لتجتم أن يكون الكاتب بليغاً في جميع أحواله، وهذا محال . فلم يبق إلا أن يكون للبلاغة سر آخر غير الأسلوب . وذلك السر هو المعنى والروح . وليست المعاني الجيدة بطائعة للكاتب في كل لحظة، ولا الروح القوي بمواتية في كل حين . أيفهم قوم الآن أن القرآن من جنس كلام العرب في اللفظ والأسلوب؟ أيفهمون الآن أن القرآن يمثل النثر العربي في العصر الذي نزل فيه وأن سرّ إعجازه راجع إلى روحه ومعانيه؟

٢٤ — ومن أغلاط النباقلاني قوله بنفى السجع من القرآن، وهو يتابع في هذا أبا الحسن الأشعري وأصحابه، ويعارض جمهوراً كبيراً من أهل العلم والأدب، منهم من سبقه ومنهم من عاصره، وحجة مخالفيه أن السجع مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في الفصاحة والبيان . ومن أقوى ما يستدلون به على وجود السجع في القرآن أن المسلمين اتفقوا على أن موسى أفضل من هارون، ومع ذلك قيل في موضع "هارون" وموسى "مراعاة للسجع"، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والذون قيل "موسى وهارون"^(١) .

والواقع أن السجع موجود في القرآن في مواطن كثيرة ، ولا ينكره إلا معاند لا يفقه ما يقول ، ومن أمثلته : ﴿ والسماء ذات الرفع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل ^(١) 》 .

ومن أمثلته أيضا : ﴿ والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ^(٢) 》 .

وكذلك : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيِّرَت ، وإذا العِشَارُ عَطَّلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجَّرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سئلت ، بأي ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلقت ، علمت نفس ما أحضرت . فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ^(٣) 》 .

ولا أطيل في سرد الآيات المسجوعة ، ففي السور المكية شواهد كثيرة على السجع والازدواج .

٢٥ — والمهم أن نعرف ما هي حجة الباقلاني على نفي السجع من القرآن لتقدير وزنه للحجج والبيّنات ، وهو يقول :

” لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز ، لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألف الكهان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لأن الكهانة تنافي النبوات ، وليس كذلك الشعر ^(٤) ” .

وهذا كلام ساقط ضعيف ، فالسجع موجود في القرآن ، ولكن الرجل يأبى أن يعترف به ، لأن الاعتراف بوجوده في القرآن يتضمن الاعتراف بأنه غير خارج عن أساليب كلام العرب ، والاعجاز في رأيه ينحصر في الأسلوب ، وما دما سلمنا بأن القرآن معجز فانه يجب أن نؤمن بأنه غير مسجوع ، وإلا ساوينا بينه وبين سائر الكلام !

ونحن لا ندرى كيف آتفق الباقلائي وأصحابه من الأشعرية أن يفهموا هذا الفهم العقيم ولا ندرى كيف صح له أن يحتم نفى السجع من القرآن قياسا على نفى الشعر ، بل يزيد على ذلك أن نفى السجع أوجب لأنه كان أسلوب الكهان . والمسألة كلها لعب في لعب وضلال في ضلال : لأن اختصاص السجع بالكهان حديث خرافة ، والمعقول أن السجع كان عند أهل الجاهلية لونا من الزخرف الفني يابجا اليه الكاتب والخطيب رغبة في التأثير ، ولم يغلب السجع على الكهان إلا لأنهم كانوا أكثر من غيرهم ثقافة وأدبا ، إذ كانوا قادة الجماهير في الجاهلية . والسجع في القرآن لا يمنع من إعجازه ، لأن الإعجاز كما أسلفنا مرجعه الى سمو المعنى وقوة الروح ، والرسول رجل من العرب تفرد من بينهم بتبليغ الرسالة الى قومه ، فمن الواضح أنه ينقلها اليهم في أبجل ما عرفوا من الأساليب . ونفى الشعر عن القرآن ليس معناه أن الشعر غير صالح للإعجاز كما توهم الباقلائي ، ولكني أرجح أن الشعر لعهد النبوة لم يكن من تقاليد الاهتمام بالشؤون الجدية ، وخاصة المسائل الروحية والدينية ، ولذلك نجد القرآن يعرض بالشعر ويهتم الشعراء باللغو والفضول والهيام في أودية الخيال . والشعر مع هذا في أسلوبه لعهد النبوة كان أضيق من أن يتسع لشرح المشاكل الدينية والاجتماعية التي أطلت في شرحها القرآن ، ومن هذا يتبين أن عدم تبليغ الرسول رسالته شعرا لم يكن معناه أنه تحامى الشعر لئلا يشارك العرب في أساليبهم كما ظن الباقلائي وأصحابه الأشعريون .

٢٦ — على أن الباقلائي لا يقف عند هذا الخطأ بل يتعداه الى خطأ أشنع في فهم

السجع فيقول :

”والذى يقدرّون أنه سجع فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً ، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كافادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى نفسه دون السجع كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى“^(١) .

وخلاصة هذه الفكرة أن الكلام لا يكون سجعاً إلا إذا كان المعنى فيه تابعا للفظ ولا ندرى من أين أتى الباقلاني بهذه القاعدة . والصواب أن خير السجع ما كان اللفظ فيه تابعا للمعنى ، كما أشار الى ذلك غير واحد ممن كتبوا فى فنون البيان ، ونحن إذا تأملنا السجع فى القرآن رأينا اللفظ فيه تابعا للمعنى ، ونرى القرآن فى مواطن كثيرة يضحى بفواصل السجع فى سبيل المعنى ، لا كما يفعل المتكلمون حين يضحون بالمعنى فى سبيل السجع .

وهناك خطأ آخر تورط فيه الباقلاني إذ يقول :

”لو كانت الذى فى القرآن على ما تقدرونه سجعاً لكان مذموماً مردولاً ، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحاً من الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم أوقع الخلل فى كلامه ونُسب الى الخروج على الفصاحة ، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً وكان شعره مردولاً ، وربما أخرجه عن كونه شعراً ، وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعاً بمقارب الفواصل متداني المقاطع ، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ، وهذا فى السجع غير مرضى ولا محمود“^(٢) .

ووجه الخطأ هنا أن الباقلاني يحاكم القرآن الى قواعد وضعها المتأخرون ، وكان أولى به أن يفهم أن القرآن هو الأساس ، ونحروج القرآن على السجع من حين الى حين من دلائل سلامته وبلاغته ، لأن التزام السجع باب الى الغلو والإغراق ، ولم يقبح السجع على ألسنة المتأخرين إلا لأنهم التزموا به ما لا يلزم في التزيين والتجميل . والذين قالوا بوجود السجع في القرآن لم يفرضوا التزامه في جميع الأحوال ولا وقعوا في مثل ما وقع فيه الباقلاني من الخطأ حين نقاه على الاطلاق^(١) .

(١) يحسن بالقارئ أن يرجع الى الفصل الذي بسطنا فيه «أطوار السجع» في الجزء الأول .

٧ - أبو القاسم الرمادي

١ - لم يصل إلينا من أخبار الحسن بن بشر الرمادي شيء كثير . وكل ما نعرفه أنه ولد بالبصرة - ولا ندري متى - وأنه انتقل إلى بغداد فتلق النحو واللغة عن الأخفش والزجاج وابن دريد وابن السراج ، وأنه عاد إلى البصرة فكتب لأبي الحسن أحمد وأبي أحمد طلحة بن الحسن بن المثنى . وكتب بعدهما للقاضي أبي جعفر بن عبد الواحد . ثم لأخيه أبي الحسن محمد بن عبد الواحد ثم لم يلبث بالبصرة إلى أن مات نحو سنة ٣٧١ هـ^(١) .

٢ - وليس فيما قرأنا من أخباره ما يعين مذهبه في الحياة . ونستطيع فقط أن نتخذ من مؤلفاته دليلاً على أن حياته العقلية قصرت أو كادت على اللغة والنقد . يؤيد ذلك مجموعة كتبه التي أشار إليها ياقوت ومنها : كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء . وكتاب ثر المنظوم . وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحترى . وكتاب في أن الشاعرين لا يتفق خواطرهما . وكتاب ما في عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ . وكتاب فرق بين الخاص والمشارك من معاني الشعر . وكتاب تفضيل شعر أمري القيس على الجاهليين . وكتاب تبين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر . وكتاب معاني شعر البحترى . وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام . وكتاب فعلت وأفعلت^(٢) .

وهذه المجموعة تعين اتجاهات ذهنه في حياته الأدبية : فهو من النقاد المولعين بدرس الشعر ونقد ما كتب عنه . وهو بنوع خاص مغرم بدرس البحترى وأبي تمام ، وتعقب ما كتبه رجال القرن الثالث عن الشعر والشعراء . ولو بقيت مؤلفاته لاستطعنا أن نصل إلى شيء كثير من المعارف الأدبية التي كان يملكها رجال القرن الثالث والرابع ، ولأمكننا أن نعرف

(١) راجع ترجمته في معجم الأدباء ج ٣ ص ٥٤ - ٦١ (٢) ياقوت ص ٥٨ ج ٣

الى أى حد كان أولئك القوم يعرفون من الدقائق الفنية التى تسبق الى أذهان الشعراء فتتفق أو تختلف وفقاً لاختلاف الأحوال أو توافق المشاعر والأذواق .

وهناك شواهد تدل على أنه فى حياته الاجتماعية كان حريصاً على تتبع أحوال معاصريه وربط ما يسمع من أخبارهم بما نُقل اليه من أخبار السالفين وتقييد ما عرف عن أهل عصره من النوادر والفكاهات .

٣ - وكان فوق ذلك كثير الشعر، حسن الطبع، جيد الصنعة، مشتهراً بالتشبيهات - كما قال يا قوت - ولكن شعره ضاع وما بق منه يدل على أنه كان جيد المعانى فى أسلوبه ينقصه الرواء . من ذلك قوله :

يا واحداً بان فى الزمان	من يحاريه أو يدانى
دغى من نائل جزيل	يعجز عن شكره لسانى
فلست والله مستميحاً	ولا أخاً طامعاً ترانى
وهب اذا كنت لى وهوباً	من بعض أخلاقك الحسان

وقوله فى عالم تتمام :

لا تنظرن الى شعثه اذا	رام الكلام ولفظه المعتاص
وانظر الى الحكم التى يأتى بها	تشفيك عند تطلق وخلاص
فالدر ليس يناله غواصه	حتى تقطع أنفاس الفواص

ومن الشعر الفكاهى قوله فى أحد القصائد :

رأيت قلنسوة تستغيث	سث من فوق رأس تنادى خذونى
وقد قلقت فهى طورا تميم	بل من عن يسار ومن عن يمين
فطورا تراها فوق القفا	وطورا تراها فوق الجبين
فقلت لها أى شىء دهاك	فردت بقول كئيب حزين
دهانى أنى لست فى قالبي	وأخشى من الناس أن يبصرونى

وأن يعبثوا بمزاج معى وإن فعلوا ذلك بى قطعونى
 فقلت لها مراً من تعرفين من المنكرين لهدى الشؤون
 ومن كان يشفق إما رآك ويخرج من جوفه كالرنين
 ومن كان يصفع فى الله لا يمل ويشتد فى غيرلين
 ويسلح ملائك كىل التمام إما على صحة أوجنون
 ففارقها ذلك الانزعاج وعادت إلى حالها فى السكون

٤ — وأهم ما بقى من آثار الآمدى هو كتابه "الموازنة بين أبى تمام والبحترى" وهو كتاب يضعه فى الصف الأول ويقدمه على كثير من الناقدين .

وأسلوبه فى ذلك الكتاب من أدق الأساليب وأصفها وأبعدها من اللغو والفضول ، وآراؤه فى نقد الشعر آراء جيدة سديدة تعجب لها اليوم أشد العجب وبيننا وبينه عشرة قرون .

٥ — وأمتن ما يصل بيننا وبين ذلك الرجل — على بعد العهد — معرفته لنفسية الأدعياء أدعياء الأدب والبيان : فهو يقترز أن الناس يعتقدون أن الشعر منفرد من بين سائر الأشياء يجواز العلم به لكل أحد والحكم عليه لكل ناظر . لأن الذى يعرف منهم من الذهب والفضة والقيق والخيل والسلاح والثياب والطيب أكثر مما يعرف من الشعر لا يتهم نفسه فى المعرفة بالشعر تهمة إياها فى المعرفة بتلك الأشياء : لأنه يرى الفرس فيعجبه ملاحه سببه ، واستدارة كفله ، وبريق شعره ، وصحة قوائمه ، وسلامة أعضائه ، وبرأته من العيوب الظاهرة والباطنة ، ولكنه لا يقدم على ابتاعه حتى يشاور فى أمره أصحاب البعير به . ويرى السيف فيبهره منه جلاؤه ، وصقاله ، وصفاء حديدته ، ولكنه لا يمتضى فيه اختياره حتى يعتمد على من يعرف حسنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضائه . ويريد ابتاع ثوب الوشى فيروقه منه حسن طرز ، وكثرة صورته ، وبديع نقوشه ، واختلاط ألوانه ، فلا يبادر إلى إعطاء ثمنه حتى يرجع إلى أهل العلم بجوهره وجودة رقعته وصحة نسجه وصحة إبريسمه . ولكنه لا يجرى على هذه القاعدة فى الشعر لأنه ربما سمع القصيدة فأعجبه منها حسن وزنها

أودقة معانيها أو ما أشتملت عليه من مواعظ وآداب وحكم وأمثال : فيتعجل بالحكم لها على سواها قبل أن يرجع إلى من هو أعلم منه بالشعر واستواء نظمه ووضع ألفاظه في مواضعها، وغير ذلك من الأنظار الدقيقة التي لا يدركها إلا أرباب الصناعة^(١).

٦ — ومن الدقائق الغريبة أن نرى الآمدي منذ عشرة قرون يفهم أن هنالك حاسة فنية يرجع إليها الناقد حين يعوزه الإفصاح عما يدركه من أسرار البيان : فهو يتحدثنا أنه كما قد يكون الفرسان سليمين من كل عيب موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية الطويلة ، وتكون الجاريتان بارعتين في الجمال سليمتين من كل عيب فيفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل في الثمن بينهما فضلا كبيرا بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق وإنما يعرفه بطبعه وكثرة درسته وطول ملاحظته ، فكذلك الشعر : قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناه واحدا ، وإيهما أجود في معناه إن كان معناه مختلفا^(٢).

٧ — وهذه النظرية البعيدة في تقدير الحاسة الفنية لم تكن مما انفرد به الآمدي : فقد سبق إليها ولكنه استغلها أحسن استغلال . وأجمل ما جاء في هذا الباب ما حكاه إسحق الموصلي : "قال لي المعتصم أخبرني عن معرفة النغم وبينها لي — فقلت إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤذيها الصفة".

قال : "وسألني محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما فاخترت . فقال : من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لأمكنني التبيين ، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما شيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان". وقيل لخلف الأحمر : إنك لا تزال ترد الشيء من الشعر وتقول هو رديء والناس يستحسنونه فقال :

"إذا قال لك الصيرفي : إن هذا الدرهم زائف فليس بنافعك قول غيره إنه جيد".^(٣)

ولكن كيف السبيل إلى كسب الذوق الأدبي أو الحاسة الفنية ؟

هنا يجب الآمدى بأن ذلك لا يكون إلا بكثرة النظر فى الشعر، والارتياض فيه، وطول الملابس له والانتقطاع اليه، والانكباب عليه، والخذ فيه، والحرص على معرفة أسرارهِ وغوامضهِ .

— والآمدى مع هذا يقرّر بأنه ليس فى مقدور كل إنسان أن يصل الى كسب الذوق الأدبى بطول الممارسة : لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما فى طبعه قبوله وما فى طاقته تعلمه . وليس كل طبع قابلاً لفهم أسرار الأدب والبيان ومن هنا صح له أن يقول :

« واعلم أيها السائل المتعنت أن هذا الذى تسأله ليس فى وسعه أن يجعلك فى العلم بالصناعة كنفسه . ولا يجد سبيلاً الى قذف ذلك فى نفسك ولا فى نفس ولده ومن هو أخص الناس به، ولا أن يأتيك فى ذلك بعلّة قاطعة ولا حجة باهرة . على أن العلم الذى لا يستقر فى الذهن إلا بالروية والمشاهدة وطول الملابس لا يمكن أن ينتقل الى ذهن آخر بمجرد القول والصفة . إلا إذا استطاع صاحب البصر بالسيوف أن يصف لك عشرة آلاف سيف مختلفات الأجناس والجواهر، بحيث يجعلك مشاهداً لها كلها فى لحظة واحدة، عالم بكل علة، محيط بكل حجة .

”وبعد فلعل الذى غرك فى دعواك المعرفة بالشعر والقدرة على الحكم فيه أن عندك خزانة كتب تشتمل على عدّة من دواوين الشعراء تُصَفِّحُها أحياناً وتحفظ منها القصيدة أو القصائد وفاتك أنك لم تغتر هذا الاغترار فيما يتعلق بذياب بدنك، وأثاث بيتك، وطرق نفقتك؛ لأننا لانراك تبتاع وشياً ولا آلة ولا تصرف ديناراً بدرهم ولا درهما بدينار، حتى ترجع الى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك مخافة أن تفجع فى مالك . فكان خليقاً بك أن تسلم أمر الشعر الى أهله مخافة أن تفجع فى عقلك . ومصيبة الغبن فى العقل أكبر من مصيبة الغبن فى المال“ .^(١)

٩ — والآمدى يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع . ويعيب على الشعراء طلب الإغراق والإبداع والميل الى وحشى المعانى والألفاظ، وإن كان ذلك مما يروى ويستجاد

للأعراب "لأن الأعرابي لا يقول إلا على قريحته، ولا يعتصم إلا بخاطره، ولا يستقى إلا من قلبه . وأما المتأخر الذي يطبع على قوالب ويحذو على أمثلة ويتعلم الشعر تعلمًا ويأخذه تلقينًا فمن شأنه أن يتجنب المذموم، ولا يتبع من تقدمه إلا فيما استحسن منهم واستجيد لهم واختير من كلامهم ... فإن الشاعر قد يعاب أشد العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره، وبالإبداع جميع فنونه، لأن مجاهدة الطبع ومغالبة القريحة مخرجة سهل التأليف إلى سوء التكلف وشدة العمل . ولكل شيء حد إذا تجاوزه المتجاوز سمي مفرطًا . وما وقع الإفراط في شيء إلا شأنه، وأعاد إلى الفساد صحته، وإلى القبح حسنه وبهائه .»

وخلاصة هذا الرأي أن الأعراب يغفر لهم ما لا يغفر للشعراء المثقفين لأنهم محتذون على غير مثال، وهذا أحل في النفوس، وأشهى إلى الأسماع، وأحق بالاستجابة مما يورده المحتذون على مثال .

وهذه مسألة فيها نظر : لأن أكثر ما روى عن الأعراب دخلته الصنعة إذ كانت جهرته من صنع الرواة . ونحن نفهم أن الأعراب يخطئون ويصيبون، وهم حين يخطئون قد يكونون خاضعين لفطرة هي أجدى على اللغة وأنفع من جهود المثقفين في الصقل والتجميل .

فإننا نرى للأعراب حرية في الحذف والإيصال لا نجد لها ظلاً عند الشعراء الحضريين وتلك الحرية في الحذف والإيصال هي أخص سمات اللغات الحية . وفي اللغة الفرنسية لذلك ألف شاهد وألف دليل .

١٠ — وظاهر من النصوص المختلفة في كتاب الموازنة أن الآمدى يريد بالذات مسألة العمل والتكلف والإغراب بإثارة وحشي المعاني والألفاظ . فهذا يقبل من الأعراب : لأنه من وحى الفطرة، ويرفض من شعراء الأمصار : لأنه نتيجة التكلف . ومعنى هذا أنه كان هناك رأى يدعو إلى تهذيب اللغة وتصفيتها وتخليصها من عنجهية الأعراب . وقد يستخلص من هذا أيضاً أنهم كانوا يفهمون أن عيش الحضارة مما يوحى التأنق والتخير

فى المعانى والألفاظ والتعابير . فالشاعر الحضرى لا يُقبل منه التوعر لأنه خروج على فطرته ، وقد يقبل من البدوى لأنه يجرى فيه على سجيته ، فكأن الفطرة هى الميزان . وهذا كما يرى القارى من أدق الأحكام .

وقد يكون لهذا الاتجاه دخل فى أعمار الألفاظ ، فبعضها عُمر طويلا لأنه وافق هوى فى أنفس الحضريين وبعضها هجرات لقلة الاستعمال : ومن هذه الناحية فضل الآمدى البحترى على أبى تمام : لأن البحترى كان يتعمد حذف الغريب والوحشى من شعره ليقربه من فهم من يتدحه . إلا أن يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة فى موضعها من غير طلب لها . وكان من أمره فى ذلك أنه كان يكتفى أبا عبادة ، فلما دخل العراق تبنى أبا الحسن ليزيل العنجهية والأعرابية ويساوى فى مذاهبه أهل الحاضرة ويقرب بهذه الكنية الى أهل النباهة والكتاب من الشيعة . فهو بذلك بدوى تحضر فراج شعره فى البدو والحضر . ولا كذلك أبو تمام فانه حضرى تشبه بأهل البدو فلم ينفق بالبادية ولا عند أكثر الحاضرة .

١١ — والآمدى لا يستبعد اللحن بل يقتر أنه ” لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين ولا يسلم منه شاعر من الشعراء الاسلاميين . وأنه قد جاء فى أشعار المتقدمين ما لا يقوم العذر فيه إلا بالآويلات البعيدة . وأن ما عيب على البحترى من مخالفة المقاييس والبعد عن الصواب قد جاء كثير مثله فى أشعار القدماء . والأعراب الفصحاء “ .

والواقع أن اللحن قديم . ومن الخطأ أن يُظن أن العرب لم يلحنوا إلا حين اختلطوا بالأعاجم . ولكنه من الواجب أن يلاحظ أن لطباع الشعراء والكتاب دخلا فى فيما أثر عنهم من اللحن : لأن لبعض الأذهان طرائق خاصة فى التعبير قد تعد انحرفا عن الصواب . فى حين أنها تفصح عن أغراض أصحابها أتم الافصاح — ولو ترك الناس على فطرتهم لكان من طرائق تعبيرهم مادة صالحة لعلم النفس : لأن الأساليب الكتابية صور للاتجاهات العقلية ، والوجدانية ، والنفسية . وفى العقول كما فى الأساليب وضوح وغموض وخطأ وصواب .

بين صاحب أبي تمام وصاحب البحتري

اخترع الآمدي مناظرة طريفة تمثل النزاع الذي قام بين أصحاب أبي تمام وأصحاب البحتري . وهي مناظرة طويلة يجدها القارئ في صدر كتاب "الموازنة بين الطائيين" ورأينا أن نثبت طرفاً منها في هذا الفصل ليرى القارئ كيف لآن النثر وعذب على قلم الآمدي وهو يصوغ هذا الحديث ^(١) :

صاحب أبي تمام — كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحتري أشعر من أبي تمام ، وعن أبي تمام أخذ ، وعلى حدوه احتذى ، ومن معانيه استقى : حتى قيل الطائي الأكبر والطائي الأصغر .

صاحب البحتري — أما الصحبة له فما صحبه ، ولا تلمذ له ، ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا أرى قط أنه محتاج إليه .

ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد بن يوسف الثوري وقد دخل عليه البحتري بقصيدته التي أولها :

« أفاق صب من هوى فأفقا »

وأبو تمام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياتاً كثيرة فلما فرغ من الانشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الأمير ! ما ظننت أن أحداً يقدم على أن يسرق شعري وينشده بحضرتي حتى اليوم ! ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة فبهت البحتري . ورأى أبو تمام الإنكار في وجه أبي سعيد فحينئذ قال أبو تمام :

« أيها الأمير والله ما الشعر إلا له وإنه أحسن فيه الاحسان كله » وأقبل يقرظه ، ويصف معانيه ، ويدكر محاسنه ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى أضعف له الجائزة . فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التي هي من عين شعره ، وفانحر كلامه ، قبل أن يعرف أبا تمام ، جدير به

(١) اكتفينا في إثبات هذه الصفحات بما أورده المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى في مختاراته . ومن أراد الشواهد فليرجع إليها في صدر كتاب الموازنة فهي هناك أوفى وأمتع

أن يستغنى عن أن يصحبه، أو يتلمذ له أو لغيره من الشعراء . على أننى لا أنكر أنه استعار بعض معانى أبى تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحترى من شعره . وليس ذلك بمقتضى أن يكون أبو تمام أستاذ البحترى ولا بمانع أن يكون البحترى أشعر من أبى تمام . فهذا كثير قد أخذ من جميل واستقى من معانيه، فما رأينا أحدا قال إن جميلا أشعر منه بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبى تمام — إن البحترى نفسه يعترف أن أبا تمام أشعر منه فقد سئل عنه وعن أبى تمام : « فقال إن جيده خير من جيدي » وجيد أبى تمام كثير .

صاحب البهتارى — إن كان هذا الخبر صحيحا فهو للبهتارى لا عليه، لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام كثير الاختلاف، وشعره شديد الاستواء، والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علوا حسنا وينحط انحطاطا قبيحا . وأن البحترى يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط ولا يسف أفضل ممن يسقط ويسف .

صاحب أبى تمام — إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولا وإماما متبوعا وشهر به حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام . وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره، وهى فضيلة عرى عن مثلها البحترى

صاحب البحترى — ليس الأمر على ما وصفت، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ولا بأول فيه ولا سابق إليه، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد وأحتذى حذوه وأفرط فى ذلك وأسرف حتى زال عن النهج المعروف، والسَّن المألوف، بل إن مسلما غير مبتدع له ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع متفرقة فى أشعار المتقدمين فقصدها وأكثر فى شعره منها . ولكنه حرص على أن يضعها فى مواضعها ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه حتى قيل أنه أول من أفسد الشعر بجاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه، وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف، فسلك طريقا وعرا، وأسكره الألفاظ

والمعاني استكراها : ففسد شعره ، وذهبت طلاوته ، ونشف ماؤه . فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه اليه . وكل ما في المسئلة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه فيه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه . أما البحتري فانه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء في شعره من الاستعارة والتجيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سببا في إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله . ونفاق شعر الشاعر دليل على علو مكانته واضطلاحه بما يلائم الأذواق ويلامس القلوب من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبي تمام — إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ، أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت هذه الطائفة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه .

صاحب البحتري — لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني ودعبل بن علي الخزازي من الشعر ومنزلتهم من العلم بكلام العرب . وقد علمتم مذهبهم في أبي تمام واذدبراءهم بشعره . حتى قال دعبل : إن ثلث شعره محال ، وثلاثة مسروق ، وثلاثة صالح . وقال : ما جعل الله أبا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنشور أشبه منه بالشعر . وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام : ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل ! وهذا محمد بن يزيد المبرد ما علمناه دقن له كبير شيء .

صاحب أبي تمام — إن دعبل^(١) كان يشنأ أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور ، فلا يقبل قول شاعر في شاعر . وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصب عليه لغرابية مذهبه ، ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه ، فكان إذا سئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدري فيعدل الى الطعن عليه . ولا مانع أن يكون جميع من تذكرونه على هذا القياس .

(١) يشنأ : ينفذ .

صاحب البحرى — لا عيب على ابن الأعرابى فى طعنه على شاعر عدل فى شعره عن مذاهب العرب الى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام الى الخطأ والإحالة . والعيب فى ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة الى طريقة يجهلها ابن الأعرابى وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية .

صاحب أبى تمام — إن العلم فى شعر أبى تمام أظهر منه فى شعر البحتى ، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

صاحب البحرى — كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً ، وكان الأصمعى شاعراً عالماً ، وكان الكسائى كذلك ، وكان خلف بن حيان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان فى زمانهم من الشعراء غير العلماء ، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل فى شعره على علمه باللغة وكلام العرب .

أما البحرى فلم يقصد هذا ولا اعتمده ، ولا كان يمتد فضيلة ولا يراه عالماً ، بل كان يرى أنه شاعر لا بد له أن يقرب شعره من فهم سامعه فلا يأتى بالغريب إلا أن يتفق له فى اللفظة بعد اللفظة فى موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه . على أن هذا العلم الذى تؤثر به أبا تمام لم ينفعه : فقد كان يلحن فى شعره لحناً يضيق العذر فيه ولا يجد المتأول له مخرجاً منه إلا بالحيلة والتمحل الشديد .

صاحب أبى تمام — لستأ نذكر أن يكون صاحبنا قد وهم فى بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح فى كثير من معانيه . وغير غريب على فكر نتج من المحاسن ما نتج ، وولد من البدائع ما ولد ، أن يلحقه الكلال فى الأوقات ، والزلل فى الأحيان ، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح فى سهوه ويتجاوز له عن خطاه . وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الزواة عليه الغلط والعيب ، وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من

أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجهود الفضل بل عفى إحسانهم على إساءتهم، ونحو يدهم على تقصيرهم .

صاحب البحرى — أما أخذ السهو والغلط على من أخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين ففي البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمام فلا تكاد تخلوله قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها مفسداً أو محيلاً أو عادلاً عن السنن أو مستعيراً استعارة قبيحة أو مخطئاً للغة بطلب الطباق والتجنيس ، أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج .

صاحب أبي تمام — إنكم تتكبرون على أبي تمام من الفضل ما يعترف به البحرى نفسه فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره .

صاحب البحرى — لم لا يفعل البحرى ذلك وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين وأخوين متصافين يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب ، فليس بمتكرولاً غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ويصفه بأحسن ما فيه ، وينحله ما ليس فيه ، على أن الميث خاصة يُعطى في تأييده من التقرىظ والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه .

صاحب أبي تمام — كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء أن جيد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله . وإذا كان جيده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه وأطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب في أنه أشعر شعراء عصره والبحرى واحد منهم .

صاحب البحرى — إنما صار جيد أبي تمام موضوعاً ومذكوراً لندرته ووقوعه في تضاعيف الردىء فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه . وجيد البحرى بكيد أبي تمام إلا أنه يقع في جيد مثله أو متوسط فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيد صاحبه .

٨ - أبو هزل العسكرى

١ - فى الأدب العربى رجلا ن باسـم العسكـرى يشـتهـران كـثيرا على البـاحـثين ، لأن كلا منهما الحسن بن عبد الله العسكـرى . وكان من أسباب هذا اللبس أن أخطأ صديقنا الأستاذ خير الدين الزركلى فى كتابه "الأعلام"^(١) فأرخ وفاة أحدهما بوفاة الآخر اعتمادا على فهرس دار الكتب المصرية .

قال ياقوت : أما وفاته فلم يبلغنى منها شىء غير أنى وجدت فى آخر كتاب الأوائل من تصديفه (وفرغنا من املاء هذا الكتاب لعشر خلت من شعبان سنة ٣٩٥) وقد ظن جورجى زيدان أن هذا تاريخ الوفاة .

والفرق بين ذينك الشخصين أن أحدهما يكنى أبا أحمد وهو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكـرى ، وثانيهما يكنى أبا هلال وهو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكـرى ، وقيل إن أبا هلال كان ابن أخت أبى أحمد .^(٢)

والعسكـرى نسبة الى عسكر مكرم ، وهى مدينة من كور الأهواز ، ومكرم الذى تنسب اليه مكرم الباهلى وهو أول من اختطها ، كما يقول ابن خلكان .^(٣)

٢ - وكان أبو أحمد العسكـرى من رجال اللغة والرواية . وكان الصاحب ابن عباد يؤد الاجتماع به ولا يجد اليه سبيلا ، فقال لخدمه مؤيد الدولة بن بويه : ان عسكر مكرم قد اختلت أحوالها ، وأحتاج الى كشفها بنفسى ، فأذن له فى ذلك ، فلما أتاها توقع أن يزوره أبو أحمد العسكـرى فلم يزره . فكتب الصاحب اليه :

ولما أبيتم أن تزوروا وقتلتمو ضعفتا فلم نقدر على الوخدان^(٤)

(١) ص ٢٢٩ ج ١ (٢) ياقوت ص ١٣٧ ج ٣ (٣) وفیات الأعيان ص ٢٣٥ ج ١

(٤) الوخدان : سعة المظهر ، كالوخد والوخيد .

أتيناكم من بعد أرض زوركم وكم منزل بكم لنا وعوان
نسائلكم هل من قوى لتزيلكم بملء جفون لا بملء جفان

وكتب مع هذه الأبيات شيئا من النثر لجاوبه أبو أحمد عن النثر بنثر مثله ، وجاوبه عن الشعر بهذه الأبيات :

أروم نهوضا ثم يثنى عزيمتي تعوذ أعضائي من الرجفان
فضممت بيت ابن الشريد كأنما تعمّد تشبيهي به وعناني
"أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان"

فلما وقف الصاحب على الجواب عجب من اتفاق هذا البيت له وقال : « والله لو علمت أنه يقع له هذا البيت لما كتبت إليه على هذا الروي » .

وقد رأى أبو أحمد أن هذا لا يقنع الصاحب وأنه لا بد من الحمل على النفس ، فركب بقلّة وقصده فلم يتمكن من الوصول إليه لاستيلاء الحشم ، فصعد تلعة ورفع صوته بقول أبي تمام :

مالي أرى القبة الفيحاء مقفلة دوني وقد طال ما استفتحت مقفلها
كأنها جنة الفردوس معرضة وليس لي عمل ذاك فأدخلها

فناداه الصاحب : ادخلها يا أبا أحمد فلك السابقة الأولى ! فتبادر إليه أصحابه فحملوه حتى جلس بين يديه فسأله عن مسألة فقال : الخبير صادفت ! فقال الصاحب : يا أبا أحمد ! تغرب في كل شيء حتى في المثل السائر ! فقال : تفاعلت عن السقوط بحضرة مولانا . وأصل المثل (على الخبير سقطت) وكانت وفاة أبي أحمد العسكري سنة ٣٨٢^(١)

وانما كتبنا هذه الكلمة عن أبي أحمد لأنه كان أستاذ أبي هلال ، ولنرشد القارئ إلى أن أبا هلال حين يقول في الصناعتين : « أخبرنا أبو أحمد » فإنه لا يريد رجلا سواه . ومن

(١) وفات ج ١ ص ٢٣٥ وقيل سنة ٣٨٧ ياقوت ج ٣ ص ١٣٤

كتاب الصناعتين نعرف شيئا كثيرا عن أبي أحمد العسكري من الوجهة الأدبية، فقد نقل عنه أشياء كثيرة في أغلب ضروب البيان، واختار شذرات من ثمره تمثله من أوساط الكتاب^(١).

٣ — أما أبو هلال فهو شخصية قوية جذابة لها أثر عظيم في اللغة العربية، ولولم يكن له إلا كتاب الصناعتين لكفى دلالة على فضله وبراعته وتفوقه فيما عني به من درس الشعر والنثر وتعقب مذاهب الشعراء والكتاب.

كان أبو هلال أبنى النفس، قوى القلب، يترفع عن الدنايا وينأى بنفسه عما يرتطم فيه أعباء الأدب من كسب العيش عن طريق الترافف إلى الأمراء والرؤساء. وقد رأينا أن أستاذه وخاله أبا أحمد العسكري كان قدوة له في ذلك، إذ كان الصاحب يستدعيه إلى حضرته فيعتذر بالضعف والشيخوخة فرارا من أن يحشر في زمرة الأتباع وطلاب المغانم وأرباب الغايات. كان أبو هلال يتجر في الثياب احترازا من الطمع والدناءة والتبذل^(٢)، ولكنه كان قوى الشعور بأن تلك مهنة لا تليق به ولا بأدبه، فكان يزفر بمثل قوله :

جلوسى في سوق أبيع وأشتري	دليل على أن الأناام قروء
ولا خير في قوم يذل كرامهم	ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويجهوهمو غنى رثاة كسوتى	هجا قبيحا ما عليه مزيد

وفوله :

إذا كان مالى مال من يلقط العجم ^(٣)	وحالى فيكم حال من حاك أو حجم
فأين انتفاعى بالأصالة والحجا	وما ربحت كفى على العلم والحكم
ومن ذا الذى فى الناس يبصر حالى	فلا يلعن القرطاس والحبر والقلم ^(٤)

٤ — وقد كان أبو هلال مع هذا التأبى متصل الجبل بالصاحب بن عباد، وليس في كتب التراجم ما يشرح لنا صلته بذلك الوزير الذى استعبد معاصريه من الكتاب

(١) أنظر ص ٣١٩ صناعتين . (٢) ص ١٣٥ ج ٣ باقوت . (٣) العجم : النوى .

(٤) ص ١٣٦

والشعراء ، ولكنى رأيت في كتاب الصناعتين ما يدل على أن صلته به كانت قوية ، ولذلك مظهران :

الأول إشادته بأدب الصاحب ، والثاني تحامله على المتنبي ، وكان ابن عباد يكره المتنبي كرها شديدا لترفعه عن مدحه ، فكان لذلك يدفع النقاد الى النيل منه والوقوع فيه ، والغرض من شعره .

أما إشادته بأدب الصاحب فتظهر في استشهاده بكلامه ، كقوله في باب السجع والازدواج : ” ومثله قول الصاحب : لكنه عمد الى الشوق فأجرى جياذه غرا وقرحا ، وأورى زناذه قدحا فقدحا ... وقوله : هل من حق الفضل تهضمه شغفا ببلدتك ، وتظلمه كلفا بأهل جلدتك ، ... وقوله : وقد كتبت الى فلان ما يوجز الطريق الى تحلية نفسه ، وينجز وعد الثقة في فك حبسه ^(١) “ .

ونرى أبا هلال في مكان آخر يقول : ” روى لنا أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضى الله عنه :

* تشط غدا دار جيراننا *

فقال ابن عباس :

* وللدار بعد غد أبعد *

فقال عمر : والله ما قلت إلا كذلك ... وإذا كان القوم في قبيلة واحدة وفي أرض واحدة فإن خواطرم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضاربة ... وأنشدت الصاحب اسماعيل بن عباد :

* كانت سراة الناس تحت أظله *

فسبقني وقال :

* فغدت سراة الناس فوق سرانه *

وكذلك كنت قلت ، فعلى هذا جائز ما يدعى لهم ^(٢) .

وفي هذه العبارة تظهر مجاملة أبي هلال للصاحب ، فهو يتخذ من حضور ذهنه دليلا على أن حضور الذهن من النعم التي قد يهبها الله للناس !

ونراه في باب الفصل والوصل يقول : ” وهكذا يفعل الكتاب الحذاق ، والمترسلون المبرزون ... ألا ترى ما كتب الصاحب في آخر رسالته له : فان حدثت فيما حلفت ، فلا خطوط لتحصيل مجد ، ولا نهضت لاقتناء حمد ، ولا سعت الى مقام نخر ، ولا حرصت على علو ذكر ... وهذه اليمين التي لو سمعها عامر بن الظرب لقال هي الغموس^(١) ، لا القسم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ... فأتى بأيمان ظريفة ومعان غريبة .

وكتب أيضا في آخر رسالته : وأنا متوقع لكاتبك ، توقع الظمان لئلا الزلال ، والصوام لهلال شوال .

وكتب آخر أخرى : وسئل أن أخلفه في تجشيم مولاي الى هذا المجمع ، ليقرب علينا تناول البدر بمشاهدته ، ولمس الشمس بفرته .

فانظر كيف يقطع كلماته على كل معنى بديع ، ولفظ شريف^(٢) .

هـ — وأما تحامله على المتنبي فيظهر في مواطن كثيرة من كتابه ، فهو لا يذكره باسمه ، ولا يتحدث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح . ففي باب تمييز المعاني ينشد قول السيد الحميري :

أيارب إني لم أرد بالذي به مدحت عاليا غير وجهك فارحم

ثم يقول : ” فهذا كلام عاقل يضع الشيء في موضعه ، ويستعمله في إبانته ، ليس كن قال وهو في زماننا :

جفخت وهم لا يحفخون بها بهم شيم على الحسب الأغبر دلائل^(٣)

فأشمت عدوه بنفسه .

(١) اليمين الغموس بالعين المعجمة التي تنفس صاحبها في النار . (٢) ص ٣٥٤ و ٣٥٥

(٣) لم يذكر أبو هلال عجز البيت (ص ٤٥) . ص ٢٩٣

وفي باب الكناية والتعريض يقول : « ومن شنيع الكناية قول بعض المتأخرين :

إني على شغفى بما فى نحرها لأعف عما فى سراويلاتها

وسمعت بعض الشيوخ يقول : الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ » .

و « بعض الشيوخ » ذاك هو صاحب بن عباد الذى قيد هذه الملاحظة فى آخر رسالته

فى الكشف عن مساوى المتنبي^(١) .

وفي باب الترضيع يقول : « ومن معيب هذا الباب أيضا قول بعض المتأخرين :

عجب الوشاة من اللحاة وقولهم دع ما نراك ضعفت عن إخفائه

هذا ردىء لتعمية معناه^(٢) » .

وفي باب التوشيح يقول : « ومما عيب من هذا الضرب ... قول بعض المتأخرين :

فقلقت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل

وإنما أخذه من قول أبى تمام فأفسده :

طابتك من نسل الجديل وشدقم كوم عقال من عقائل كوم^(٣)

٦ — وتحامل أبى هلال على المتنبي هو المطنن الظاهر فى أخلاقه ، فقد كان يستطيع

أن ينقد شعر المتنبي فيظهر الجيد منه والردىء ، ولكل شاعر جيد وردىء ، ولكنه سلك

خطئة واحدة هى النص على السخيف من شعر المتنبي مع التعامى عن معانيه الجيدة ، وخياله

الوثاب . فانضم بذلك إلى النقاد المغرضين الذين كلفوا بالبحث عن عيوب المتنبي ابتغاء

مرضاة الوزير ابن عباد ، وما أخط الأدب إذا سخر لأهل الملك والسلطان !

٧ — ويعد نثر أبى هلال من الطبقة العالية . وهو يسجع ، ولكنه لا يلتزم السجع ،

والتعبير المشرق الفصيح من أظهر مميزاتة ، ولا يكاد القارئ يرى فى نثره عبارة غامضة أو فكرة

(١) مخطوطة فى دار الكتب المصرية . (٢) ص ٣٠٠ (٣) ص ٣٠٤ والجديل وشدقم خلان

كانا للنعمان .

يحوطها اللبس ، وإنما يعضى فى الشرح والإيضاح بلغة سهلة مقبولة لا يعترها ضعف ولا التواء . وانظر قوله فى جودة الرصف وحسن النظم :

«أجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل والخطب والشعر . وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب . وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا . وسوء التأليف مع رداءة الرصف والتركيب شعبة^(١) من التعمية . فإذا كان المعنى سبيا ، ورصف الكلام رديا ، لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة . وإذا كان المعنى وسطا ، ورصف الكلام جيدا ، كان أحسن موقعا وأطيب مستمعا ، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا فى المراءى وإن لم يكن مرتفعا جليلا ، وإن اختل نظمه فضمت الحبة إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا . وحسن الرصف أن توضع الالفاظ فى مواضعها وتمكن فى أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفًا لا يفسد الكلام ولا يعنى المعنى ... وسوء الرصف تقديم ما ينبغى تأخيره منها وصرفها عن وجوها وتغيير صيغتها ومخالفة الاستعمال فى نظمها^(٢) .

ولا يستطيع وضع لغة التأليف فى مثل هذه السهولة وهذه الدقة إلا الكتاب المتفوقون . وانظر أيضا قوله :

«البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ، ولا على ملك دون سوقة ، ولا على لسان دون لسان ، بل هى مقسومة على أكثر الألسنة . فهم فيها مشتركون ، وهى موجودة فى كلام اليونان وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم ، ولكنها فى العرب أكثر لكثرة تصرفها فى النثر والنظم والخطب والكتب والسجع والمزدوج والرجز ، وهم أيضا متفاوتون فيها . فقد يكون العبد بليغا ولا يكون سيده ، وتكون الأمة بليغة ولا تكون ربها ، فالبلاغة قد تكون فى أعراب البادية دون ملوكها ، وقد يحسنها الصبي والمرأة^(٣) .

(١) السىء ، هنا ، معناه الجيد ، والسيء : الدرة . (٢) ص ١٢٠ الصنائع

(٣) ص ٢١٣ التفضيل بين بلاغى العرب والعجم ضمن مجموعة التحفة البية طبع الآستانة .

وجمال هذه الفقرة يرجع الى دقتها وسلامتها من الفضول ، وفيها صورة لفهم رجال ذلك العهد لمواقع البلاغة ، فهي في رأيهم ليست وقفا على أمة دون أمة ، ولكنهم يشعرون أن العرب أقدر الناس على الكلام البليغ ، ولا يمكن أن يطالب الرجل بغير ذلك ، فمن الصعب أن يدرك الناقد أن هناك لغة أجهل من لغته ، إذ كان تذوق الأساليب يرجع الى طول الألفة والصدافة الروحية لأسرار الكتاب والشعراء . وفي رأي أن البلاغة كالموسيقا لا تفهم ولا تُذاق إلا بطول السماع ، فهناك ألحان شرقية بديعة لا يدرك جمالها إلا الشرقيون ، ولو سمعها الغربيون لسحروا منها وعدوها من عبث الرطاع . وهناك ألحان غربية دقيقة لا يقدرها إلا الغربيون ، ولو سمعها الشرقيون لستدوا آذانهم وقالوا هذه مهمة الأعجم !

٨ — وكان أبو هلال يجيد الشعر ، ويضع شعره في طبقة أشعار المفلقين ، فينشده في الصناعتين مستشهدا به كما يستشهد بشعر أبي تمام والبحترى ، أو النابغة وامرئ القيس ، ومن إليهم من القدماء والمحدثين ، وهذا يدل على اعتداده بقيمته الفنية ، ونحن كذلك نراه من الشعراء المجيدين ، فنستحسن قوله — وقد أنشده في باب المطابقة — :

قل لمن أدنيه جهدى	وهو يقصيني جهده
ولمن ترضاه مولا	ك ولا يرضاك عبده
أملح بملح الشـ	كل أن يخلف وعده
أم جميل بجميل الـ	وجه أن ينقض عهده
ما الذى صدك عنى	أيت ما صدك صد ^(١) ده

ونستجيد قوله في تفضيل الشتاء على غيره من الأزمنة :

إن روح الشتاء خلص روحى	من حرور تشوى الوجوه وتكوى
برد الماء والهواء كأن قد	سرق البرد من جوانح خلوى

ريحه تلمس الصدور فتشفي	وغماماته تصوب فتروى
لست أنسى منه دماثة دجن	ثم من بعده نضارة صحو
وجنوبا يبشر الأرض بالقط	ركبا بشر العليل بـبرو
وغيوما مطر زات الحواشي	بوميض من البروق وخفو
كلما أرخت السماء عُراها	جمع القطر بين سفلى وعلو
وهى تعطيك حين هبت شمالا	برد ماء فيها ورقة جـو
وليل أطلن مدة درسى	مثلماً قد مددن في عمر لهُوى ^(١)

(١) ص ١٣٨ ج ٣ ياقوت .

٩ - كتاب الصناعتين

١ - أجمل أثر لأبي هلال العسكري هو كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر . وقد أراد أن يودعه جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام ثمة ونظمه ، من غير إخلال ولا إسهاب ، وجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلاً ، تكلم فيها عن موضوع البلاغة ، وتميز الكلام جيده من رديئه ، والإيجاز والإطناب ، وحسن الأخذ وقبحه ، والتشبيه والسجع والازدواج ، والبديع وفنونه ، الخ .

والغاية من علم البلاغة فيما نص أبو هلال هي أن يعرف المتأدب إعجاز القرآن . وهي فكرة كثيرة الذبوع عند المتقدمين : فعلم اللغة العربية في عرفهم إنما وضعت لفهم القرآن المجيد ، وهم يريدون أن يطمئن المؤمن إلى إعجاز القرآن اطمئناناً مؤسساً على قواعد من البيان تحمل المنصف على الإقرار بإعجاز ذلك الكتاب . وهناك غايات ثانوية منها فهم الأدب ومنها القدرة على إجادة الإنشاء^(١) . وقد أشار أبو هلال إلى أن الكتب المصنفة في ذلك الفن كانت لعهد قليل وأنها أشهرها كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهو في رأيه كتاب جم المنافع لما أشتمل عليه من جيد الفصول والفقر والخطب والأخبار ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلاء ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه : فهي ضالة بين الأمثلة^(٢) لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير .

٢ - كتاب الصناعتين كتاب جيد ، تشعر وأنت تقرأه أنه كتاب نادر المثال ، والمؤلف قوى الشعور بذلك ، فإننا نراه يقول بعد أن شرح نعوت البلاغة ووجوه البيان والفصاحة : « ولم يسبقني إلى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد ، وإنما اقتصر من كان قبلي على ذكر تلك النعوت عارية مما هي مفتقرة إليه من إيضاح غامضها ، وإنارة مظلمها ،

فكان المنفعة بها للعالم دون المتعلم ، والسابق دون اللاحق ، وربما اعترض الشك فيها للعالم المبرز ، فسقطت عنه معرفة كثير منها ، وأنت أيذك الله تعتمد ما ذكرته من ذلك ؛ وتأتي بما شرحته منه ، وتستدل به على ما ألفته من جنسه إذا عثرت به ، لتستغنى عن جميع ما صنف في البلاغة ، وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة ، إن شاء الله^(١) .

ونراه يقول بعد أن تكلم عن قبج الأخذ : « وقد أتيت في هذا الباب على الكفاية ، ولا أعلم أحدا ممن صنف في سرق الشعر فثل بين قول المبتدئ وقول التالى وبين فضل الأول على الآخر والآخر على الأول غيرى ، وإنما كان العلماء قبلى ينهبون على مواضع السرق فقط ، فقس بما أوردته على ما تركته ، فاني لو استقصيته لخرج الكتاب عن المراد^(٢) .

٣ - وأول ما يلاحظ في كتاب الصناعتين أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد ، فان المؤلف ينتهز جميع الفرص ليعرض للقارئ طرائف النثر الجيد والشعر البليغ ، وهو لا يكتفى بشاهد واحد ، وإنما يندفع فينتقل من رسالة أنيقة الى حكمة بليغة ، ومن بيت جيد الى قطعة مختارة . وقد بقى كتاب الصناعتين لذلك مرجعا لأجل ما أنتجت القرائح العربية : ففيه نماذج من النثر البليغ قد يندر أن نجدها في كتاب سواء ، واليك هذه الدرة التي نقلها عن كثير ابن هراسة في وصية ابنه :

” يا بنى ! إن من الناس ناسا ينقصونك إذا زدتهم ، وتهون عليهم إذا أكرمهم ، ليس لرضاهم موضع فتقصده ، ولا لسخطهم موقع فتحنره ، فإذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبد لهم وجه المودة وأمنعهم موضع الخصاص ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزا دون شرهم وما منعهم من موضع الخصاص قاطعا بحرمهم^(٣) .

٤ - ومن أظهر الدلائل على أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد أنه يكثر من الاستطراد ، والاستطراد هو المنهج الغالب على كتب الأدب الخالص ، وهو منهج جميل كان يريد به القدماء نشر المعارف الأدبية ، أو ما يسمى اليوم بالثقافة العامة ، ومن أمثلة

استطراذه أنه أراد أن يضرب مثلاً للعلم الكثير في القول اليسير فقال : وسئل بعض الأوائيل :
ما كان سبب موت أخيك ؟ قال : كونه ! ... وهنا مضى أبو هلال يخبرنا أن الناس تنازعوا
هذا المعنى . فقد قيل لأعرابي : كيف حالك ؟ فقال : ما حال من يفنى ببقائه ، ويستقم بسلامته ،
ويؤتى من مأمته . وأن النبي عليه السلام قال : كفى بالسلامة داء . وأن حميد بن ثور قال :
أرى بصرى قد رابى بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما
وقال آخر :

كانت فنانى لا تلين لغامر فالانها الإصباح والإمساء
ودعوت ربي بالسلامة جاهدا يصحني فاذا السلامة داء
وقال ابن الرومي :

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة اذا زال عن نفس البصير غطاؤها
وكيف بقاء العيش فيها وانما ينال بأسباب الفناء بقاؤها
وقريب من ذلك قول محمد بن علي : مالك من عيشك إلا لذة تذلف بك إلى حمامك ،
وتقربك من يومك . فأية أكلة ليس معها غصص ، وشربة ليس معها شرق ؟ فتأمل أمرك .
فكانك قد صرت الحبيب المفقود أو الخيال المحترم . وقال أبو العتاهية :
* أسرع في نقص امرئ تمامه *

ولم يكتف بهذا أبو هلال ، بل ذكر أن أول من نطق بهذا المعنى النمر بن تولب
في الجاهلية إذ قال :

يود الفتى طول السلامة والغنى وكيف يرى طول السلامة يفعل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء اذا رام القيام ويحمل

ثم ذكر من الأمثال : كل من أقام شخص ، وكل من زاد نقص . وأضاف إلى ذلك
شيئا من مختار شعره في هذا المعنى .

(١) في الأصل « الجيب » وهو تحريف ، والتصويب عن الكامل ج ١ ص ٨٧ طبعة الخشاب .

(٢) راجع ص ٢٧ — ٢٩

٥ - ومما يؤاخذ عليه أبو هلال أنه يهمل أسماء الكتاب والشعراء في كثير من الشواهد، كأن يقول: كتب بعضهم إلى أخ له^(١) "أما بعد فإن المرء ليسر درك ما لم يكن ليفوته، ويسوء فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك فيما قدمت من خير، وأسفك على ما فاتك من بر" وكان يقول: "كتب بعضهم يصف رجلاً فقال: "أما بعد فانك قد كتبت تسأل عن فلان كأنك قد هممت بالقدوم عليه، أو حدثت نفسك بالوفود إليه، فلا تفعل، فإن حسن الظن به لا يقع إلا بخذلان الله تعالى، وإن الطمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلا بسوء التوكل على الله تعالى، والرجاء لما في يديه لا ينبغي إلا بعد اليأس من رحمة الله تعالى، لا يرى إلا أن الإقتار الذي نهى الله عنه هو التبذير الذي يعاقب عليه، والاقتصاد الذي أمر به هو الإسراف الذي يغضب منه... وأن مواساة الرجل أخاه من الذنوب الموبقة، وأفضاله عليه إحدى الكبائر المرهقة، وأن الله تعالى لا يغفر أن يؤثر المرء على نفسه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء!"^(٢)

٦ - ويكثر أبو هلال من كلمة "قال الشاعر، وقال الآخر" من غير تعيين، وهذا عيب لم ينفرد به، وإنما هو عيب غالب على أكثر المؤلفين في اللغة العربية، وصلنا به إلى الجهل المطبق بتمييز العصور بعضها من بعض، ولو نسبت كل كلمة إلى قائلها لعرفنا كثيراً من تطورات المعاني والألفاظ والأساليب.

٧ - وسر البلاغة عند أبي هلال يرجع إلى الألفاظ "وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه"^(٣) ودليله على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عملت لإفهام المعاني فقط، لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام. ودليل آخر عنده أن الكلام إذا كان لفظه حلواً عذبا ومعناه وسطاً دخل في جملة الجيد، وإذا كان المعنى صواباً واللفظ بارداً فاترا - والفاتر شر من البارد - كان مستهجنًا ملفوظًا، ومذموماً مردوداً^(٤).

وقد ضرب المثل فيما سبق بالعقد المنظوم : فانه يكون أروع إذا جعلت كل خرزة منه إلى ما يليق بها وان لم يكن مرتفعاً جليلاً ، وان اختل نظمته فضمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها افتحمته العين وان كان فائقاً ثميناً .

وقد عرض في باب التتميم إلى قول الخنساء :

وان صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وبين أنه مأخوذ من قول الأعشى :

وتدقن منه الصالحات وان يُسَيَّئَ يكن ما أساء النار في رأسي كبكبا

إلا أنها أخرجته في معرض أحسن من معرض الأعشى . ثم قال : ” وهذا دليل على صحة ما قلناه من أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة “^(١)

٨ - وحسن اللفظ عند أبي هلال موقوف على جمال المعنى ، فلا خير فيما أجيد لفظه إذا تخف معناه . والكلام عنده بسلاسته وسهولته وتخير لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه واستواء تقاسيمه ، مع عدم ضروراته بحيث يكون المنظوم مثل المنثور في حسن رصفه وتأليفه ، وكمال صوغه وتركيبه . وهو يفضل الكلام السهل ، ويراہ أدل على قدرة الشاعر والكاتب .^(٢)
وهذا حق : فان سهولة الكلام تحتاج الى صنعة ومهارة وحذق ، وليس في مقدور كل كاتب أن يخاطب الناس جميعاً بما يفهمون في لغة سهلة تجرى الى أذهانهم وعقولهم وأذواقهم ، ثم تظل مع ذلك فوق قواهم لا يستطيعون أن يأتوا بشئ من مثل ما فيها من الألفاظ المتخيرة ، والمعاني الشريفة ، والخيال الجميل .

وقد ضرب المثل للسبل المتنوع بقول العباس بن الأحنف :

إليك أشكورب ما حلّ بي من صدّ هذا التائه المعجيب

إن قال لم يفعل وإن سبل لم يذل وإن عوتب لم يعتب

صب بعصيانى ولو قال لى لا تشرب البارد لم أشرب

وقول البحتري :

أيها العاتب الذي ليس يرضى ثم هنيئا فلست أطعم غمضا
إن لي من هواك وجدا قد استهم ملك نومي ومضجما قد أقضا
بخفوني في عبرة ليس ترقا وفؤادي في لوعة ما تقضى
بأبي شادن^(١) تعلق قلبي يحفون فواتر اللفظ مرضى
لست أنساه إذ بدا من قريب يتثنى تثنى الغصن غضا
واعتذاري إليه حين تجافى لى عن بعض ما أتيت وأغضى
واعتلاقي تفاح خديه تقيبه لا ولثا طورا وشما وعضا

وقول الآخر :

صرفت القلب فانصرفا ولم ترع الذي سلفا
وبنت فلم أذب كمدًا عليك ولم أمت أسفا
كلانا واجيد في الناس من ممن مله خلفا

ولكن السهولة عند أبي هلال شيء آخر غير الليونة ، فالكلام الذي يسهل حتى يصل
إلى الرخاوة والانحلال ردىء مردود^(١) .

والكلام الجزل يبيىء بعد السهل في الرتبة ، والجزل في رأيه هو الذي تعرفه العامة إذا
سمعته ولا تستعمله في محاوراتها^(٢) . والفرق بين السهل والجزل على هذا أن السهل تفهمه العامة
وتطمع فيه مع عجزها عنه ، أما الجزل فهو ما تفهمه العامة وتشعر مع فهمها له أنها لا تقدر عليه .
والجزالة عند أبي هلال شيء آخر غير الوعورة ، فهي الجمع بين القوة والسهولة ، كقول
سعيد بن حميد :

”وأنا من لا يحتاجك عن نفسه ، ولا يغالطك عن جرمه ، ولا ياتمس رضاك إلا من جهته ،
ولا يستدعى برك إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك

إلا بالاعتراف بالجرم . نبت بي عنك غيرة الحداثة، وردتني اليك الحنكة، وواعدتني منك الثقة بالأيام ، وأدنتني اليك الضرورة. فإن رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر، وتجدد النعمة بآطراح الحقد، فإن قديم الحرمة وحديث التوبة يحقان ما بينهما من الإساءة، فإن أيام القدرة وإن طالت قصيرة، والمتعة بها وإن كثرت قليلة، فعلت^(١) .

ومما هو أجزل من هذا قول الشعبي للحجاج وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث :
 ” أجذب بنا الجناح، وأحزن بنا المنزل، واستحلنا الخدر، واكتحلنا السم، وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا بجرة أقوياء“ فغفا عنه^(٢) .

ومع اهتمام أبي هلال باللفظ نراه ينص في مكان آخر على أن المدار على إصابة المعنى ، وأن المعاني تحمل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة^(٣) . وهنا يناقض رأيه الأول، فضلا عن ضعف تشبيه المعاني بالأبدان والألفاظ بالأثواب ، وكان أولى لو شبه الألفاظ بالأجسام والمعاني بالأرواح . وفي رأيه أنه يجب أن يفرق بين المعنى والفرض، لأن ما جرى عليه أبو هلال وغيره من كتاب النقد والبيان يتركز على وحدة البيت في الشعر، وعلى وحدة الفاصلة في النثر، مع أنه يجب التفكير في وحدة الفرض الذي سيق من أجله الكلام، وبذلك نقل النقد الى أفق أوسع، وتكون المعاني الجزئية وحدات تتكون منها الرسالة أو الخطبة أو القصيدة، كما ينظم العقد من حبات الجمان^(٤) .

وهناك أبواب في كتاب الصنائع تشعرك بنفحات الأدب الجميل، وإن لم تكن في جملتها من مبتكرات أبي هلال . ففي باب الالتفات شواهد بدیعة مسندة الى الأصمعي إذ قال :
 أتعرف التفاتات جرير؟ قلت : لا، قال :

أتنسى إذ تودعنا سليمي بعود بشامة؟ سقى البشام

(١) ص ٤٩ (٢) استحلنا الخدر : اتخذناه حلسا . والجلس بالكرم كساء، على ظهر البعير تحت البرذعة ويسط في البيت . (٣) ص ٤٩ (٤) ص ٥١ (٥) انظر الصفحات ٩٣ — ١٠٢ من كتاب (الموازنة بين الشعراء) .

ألا تراه مقبلا على شعره (لعل الصواب شأنه) ثم التفت الى البشام فدعا له ؟

وقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقتي ^(١) لازلت في علل وأيك ناضر ^(٢)

وفي باب الرجوع يمثل بقول القائل : ليس معك من العقل شيء، بلى بمقدار ما يوجب الحجة عليك . وقول الشاعر :

أليس قليلا نظرة ان نظرتها اليك ؟ وكلا ليس منك قليل ^(٣)

وفي تجاهل العارف يتحفنا بهذه القطعة النفيسة من ثره هو — طيب الله ثراه — إذ يقول «سمعت بورود كتابك، فاستفزني الفرح قبل رؤيته، وهز عطفي المرح أمام مشاهدته، فما أدرى أسمع بورود كتاب، أم ظفرت برجوع شباب، ولم أدر ما رأيت : أخط مسطور، أم روض ممطور؟ وكلام منشور، أم وشى منشور؟ ولم أدر ما أبصرت في أشائه : أبيات شعر، أم عقود در؟ ولم أدر ما حملته : أغيث حل بوادي ظمآن، أم غوث سيق الى لufان» ^(٤) وقد يلاحظ أن أبا هلال يغالى أحيانا في نقده ، فيؤاخذ مثلا أوس بن حجر في قوله :

ولست بخابئ أبدا طعاما حذار غدا، لكل غدا طعام

لما تكرر فيه من لفظ غدا ^(٥).

ونحن لا نطالب أبا هلال بأن يصيب في كل أحكامه، فذلك مطلب عسير، وإنما يكفي أن نقول إن كتابه يضع القارئ في حركة فكرية متصلة. وأنا شخصيا مدين له، فقد قرأته أكثر من عشرين مرة، وأشعر كلما عدت اليه بأنه كتاب جديد يُقرأ لأول مرة، وذلك أقصى ما يطلب من الكتاب النفيس .

(١) اللل، بالتحريك، الشرب بعد الشرب تباعا . (٢) ص ٣١٠ (٣) ص ٣١٣

(٤) ص ٣١٤ (٥) ص ٤١

١٠ - أبو علي الحاتمي

١ - أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي من الشخصيات القوية التي غابت أخبارها عن الناس فلم يعرفها منهم إلا القليل : وسبب ذلك يرجع إلى أن جمهورنا لا يعرف من أعيان الشعر والنثر والنقد إلا من وصلت إليه من آثارهم صبايات كافية تميظ اللثام عن بعض الجوانب من أدبهم المجهول . ونحن من بين الأمم لا نعرف من أدبنا القديم إلا قليلا ، لأن نهضتنا الحديثة تشبه يقظة المخمور الذي ينظر حواليه فتراءى له صور وأشباح لا يميزها إلا بجهد شديد . من أجل ذلك قل عندنا من صحت عزيمته على النظر إلى أدب العرب بمثل ما ينظر الأوربيون إلى أدب اليونان والرومان . وسيرى القارئ في هذا الفصل بوارق من ذهن الحاتمي تشعره بأن من المخجل أن ينسى مثل هذا الرجل في عصر يزعم ناشئوه أنهم طلاب مجد وأنهم حريصون على وصل ما انقطع من تراثهم الفكري المجيد .

٢ - ألف أبو علي الحاتمي عدة كتب في اللغة والأدب والنقد، منها حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، والموضحة في مساوى المتنبي ، والهللابة في صناعة الشعر ، وسر الصناعة في الشعر أيضا ، والحالى والعاطل في الشعر كذلك ، وكتاب المجاز في الشعر أيضا . وهذا الإلحاح في الكتابة عن الشعر يدل على أنه كان من المولعين بدرس الشعر ونقده وأنه كان من أئمة زمانه في هذا الباب . وقد ضاعت كتبه النقدية مع الأسف المروع ، ولم يبق منها إلا شواهد ضئيلة تذكر الحسرة في أنفس من يقدرون قيمة النقد الحق في دلالاته على ثقافة الذهن ، ومثانة العقل ، وسلامة الذوق ، وإفصاحه عن تطور الحياة العقلية في مختلف الأجيال .

ولنسارع فنقدم للقارئ كلمة حفظت في " زهر الآداب " تمثل فهم الحاتمي لوحدة

القصيد إذ يقول :

”مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فتي انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تقفون محاسنه ، وتعفى معاملة . وقد وجدت حذاق المتقدمين ، وأرباب الصناعة من المحدثين ، يحترسون في مثل هذه الحال احتراسا يجنبهم شوائب نقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان ، حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمدحها ، كالرسالة البليغة والخطبة الموجهة لا ينفصل جزء منها عن جزء . وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ، ولطف أفكارهم ، واعتمادهم البديع وأفانينه في أشعارهم ، وكأنه مذهب سهلوا حزنه ، ونهجوا دارسه . فأما الفحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والاسلاميين فذهبهم التعالم عن كذا الى كذا ، وقصارى كل أحد منهم وصف ناقته بالعنق والنجابة والنجاء ، وأنه امتطأها فأدّرع عليها جلباب الليل . وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به الى غرض لم يهتمده ، إلا أن طبعه السليم ، وصراطه في الشعر المستقيم ، نضا بتاره ، وأوقد بالبقاع ناره . فن أحسن تخلص شاعر الى معتمده قول النابغة الذبياني :

فكفكفت عنى عبرة فرددتها	على النحر منها مستهل وداع
على حين عابت المشيب على الصبا	وقلت ألما أصح والشيب وازع
وقد حال هم دون ذلك شاغل	مكان الشغاف تبغيه الأصابع
وعيد أبي قابوس في غير كنهه	أتانى ودونى راكس فالضواجع

وهذا كلام متناسب تقتضى أوائله وأخره ، ولا يتميز منه شيء عن شيء . ولو توصل الى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعانى ، وفتحوا أبواب البديع ، واجتنبوا ثمر الآداب ، وفتحوا زهر الكلام ، لكان معجزا عجبا ، فكيف يجاهل بدوى إنما يغترف من قلب قلبه ، ويستمدّ عفوها جسه .

أليس في هذه الفقرات دليل على أن الحاتمي كان بعيد الغور في نقد الشعر؟ ألا تسمو نظراته هذه الى أدق ما وصل اليه النقد في العصر الحديث؟ وأي تمثيل أصدق من تمثيل القصيدة بالإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض؟ يضاف الى ذلك جرأته في رمي الجاهليين ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين بقلة الفهم لأسرار الصناعة، وقصر ذلك على المحدثين الذين توقفت خواطرهم ولطفت أفكارهم واعتمدوا أفانين البديع . وإنما عددنا ذلك جرأة لأن الرأي الغالب في تلك الأيام كان يميل الى تفضيل القدماء واختصاصهم بالإمامة في الشعر ورمي من عداهم بالتخلف والإسفاف . على أن الحاتمي لم يفته أن يقزر أن البدوى الجاهل قد يغترف من قلب قلبه ويستمد عفوها جسده فيأتي بالمعجز الذي يعز أحيانا على العارفين بأسرار البيان .

٣ -- ولكن هذه البراعة التي يمثلها ما بقي للحاتمي من الشذرات القليلة لم ترتفع به كثيرا في الأوساط الأدبية لعصره ولم يتحدث عنه من معاصريه إلا القليل . فما تعليل ذلك؟ إننا نفترض أن نحول الحاتمي يرجع الى انصراف الناس عنه لصلفه وكبريائه وذهابه بنفسه الى أبعد غايات الزهو والخيلاء ، وقد حدثنا ياقوت أنه كان مبغضا الى أهل العلم فهجاه ابن الجحاح وغيره بأهـاج مرة . ولم يكن لهذا البغض من سبب فيما نفترض غير إسراف الحاتمي في العُجب ودعواه التفرد بالحـق واللوزعية والذكاء . والحذقة من أخطر ما يُرزا به العلماء والأدباء وهي تجلب الى أصحابها من ألوان العداوة والبغضاء ما يذهب بما لهم من وطيد المجد وكرم الصيت . وقد يتفق لأهل العلم والأدب أن يُشغلوا بالإعلان عن مواهبهم وكفاياتهم فيكون ذلك أسرع الى هدمهم وتهوين أقدارهم في أنفس الناس . وكيف لا يضيق الجمهور صدرا بحذقة الحاتمي وهو يقول عن نفسه في مقدمة كتاب وضعه في سر صناعة الشعر :

«وقد خدمت سيف الدولة — تجاوز الله عن فرطاته ! — وأنا ابن تسع عشرة سنة تميل بي سنة الصبا وتنفاد بي أريحية الشباب بهذا العلم ، وكان كلفا به علقا حلقة المغموم

(١) معجم الأدباء ج ٦ ص ٥٠١ (٢) ياقوت ج ٦ ص ٥٠٣

بأهله ، متقبا عن أسراره . وُوزِنَتْ في مجلسه تكمة وإدناء وتسوية في الرتبة — ولم تسفر خدای عن عذاریهما — بأبي علي الفارسی وهو فارس العربية وحائز قصب السبق فيها منذ أربعين سنة ، وبأبي عبدالله بن خالويه وكان له السهم الفائز في علوم العربية تصرفا في أنواعه ، وتوسعا في معرفة قواعده وأوضاعه ، وبأبي الطيب اللغوي وكان كما قيل حتف الكلمة الشroud حفظا وتيقظا ، ونازعت العلماء ومُدحت في مصنفاتهم ، وعُددت في الأفراد الذين منهم أبو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرماني وأبو سعيد المعلى ، واتخذت بعضا ممن كان يقع الايما عليه سخرة ، وأنا إذ ذاك غزير الغرارة ، تميد بي أسرار السرور ، ويسرى علي رخاء الاقبال ، وأختال في ملأه العز في بُلَهْنِيَّة من العيش وخفض من النعيم ، وخطوب الدهر راقدة وأيامه مساعدة » .

فعلام يدل هذا الكلام ؟ ألا يدل على أن الحاتمي كان مفتونا بنفسه أشد الفتنة ، ومسرفا في الزهو أشنع الاسراف ؟ وقد نفهم أن يدافع الرجل عن نفسه فيذكر من مناقبه ومحامده ما يشاء حين يرى الجمهور يحدد فضله ، ويطمس محاسنه ، ولكنا نعرف كذلك أن هذا لا يقع إلا من المشغوفين بالشهرة والصيت : لأنهم يتوهمون دائما أنهم مغبونون ، وأن الجمهور لفضلهم كنود .

٤ — وقد أصطدم كبرياء الحاتمي بكبرياء المتنبي ، وكانا متعاصرين يضمركلاهما لصاحبه أقم ألوان البغضاء . والشاعر والناقد حين يختصمان يصلان الى أبشع صور التحامل والعدوان ، ولا سيما إذا أصطبغت الخصومة بصبغة سياسية ظاهرها التعصب للأدب وباطنها التحزب الشنيع . وهذا هو الذي وقع في خصومة الحاتمي للمتنبي : فقد كان الحاتمي صديقا أو تبعا للوزير المهلبی ، وكان المهلبی يبغض المتنبي بغضا شديدا لترفعه عن مدحه واتصاله بأنداده من الوزراء والرؤساء ، وكذلك تربص الحاتمي وانتظر قدوم المتنبي الى بغداد لينظره ويؤلب العامة عليه ويذهبهم في شعره ، فتم له من ذلك بعض ما أراد .

٥ - ترك الحاتمي رسالتين في نقد المتنبي : أولاهما خلاصة ما جرى في المجلس الذي تلاقيا فيه لأول مرة، وهي رسالة مفروضة بالطبع، لأنه تكلم وحده وقصّ ظروف المناظرة على هواه. ولكن ذلك لا يمنع من أن نصدق الحاتمي حين يذكر أنه ضايق المتنبي، لأننا نعرف أن كل ناقد أقوى من كل شاعر، لأن كل معول يؤثر في كل بناء، والناقد يستطيع كل شيء متى استباح لنفسه الظلم واختلاق العيوب. والمتنبي كان رجلاً واسع الشهرة، والمشاهير في الغالب جبناؤ: يتوهم أكثرهم أن سوء القالة يذهب بأجد الأعمال، ويأتي على أرفع الأقدار. وبعض هذا الوهم صواب.

ولترك الحاتمي يتحدث قليلاً لنرى خيلاءه وقد قارع المتنبي :

« كان أبو الطيب المتنبي عند وروده مدينة السلام التحف رداء الكبر، وأذال ذيول التيه، وصعّر خده، ونأى بجانبه، وكان لا يلقى أحداً إلا نافضاً مذكرويه^(١)، رافلاً في التيه في برديه، يتخيل إليه أن العلم مقصور عليه، وأن الشعر بحر لم يغترف نير مائه غيره، وروض لم يرع نواره سواء، فدل بذلك مديدة... حتى تخيل أنه القريع الذي لا يقارع، والتزع الذي لا يحارى ولا ينازع، وأنه رب الغلب، ومالك القصب، وثقلت وطائنه على أهل الأدب بمدينة السلام فطأ كثيراً كثير منهم رأسه، وخفض جناحه، وطامن على التسليم له جأشه، تخيل أبو محمد المهلب أن أحداً لا يقدر على مساجلته ومجاراته ولا يقوم لتبعه بشيء من مطاعنه. وساء معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوه رجل فلا يكون في مملكته أحد يمانئه في صناعته ويساويه في منزلته، نهدت حينئذ متبعا عواره، ومتعقبا آثاره، ومطفيا ناره، ومهتكا أسرارها، ومقلما أظفاره، وناشرا لمطاويه، وممزقا جلباب مساويه... الخ^(٢) ».

والرسالة تقع في أربع عشرة صفحة كلها مقارعة ونضال، وهي تمثل طريقة الحاتمي في الكتابة ومذهبه في النقد، وفيها فقرات قوية، كقوله يجيب المتنبي وقد سأله عن خبره

(١) المذروان بالكسر أطراف الآية، بلا واحد، أو هو المذرى، ومن الرأس ناحيتاه، ومن القوس ما يقع عليها طرف الوتر من أعلى وأسفل. وجاء ينفض مذكرويه باغيا متهددا (قاموس).

(٢) ياقوت ج ٦ ص ٥٦٥ وقد وردت القصة أيضا في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٢ باختلاف قليل.

في ثاقل وفتور : ”أنا بخير ، لولا ما جئيت على نفسي من قصدك ، وكلفت قدمي في المسير إلى مثلك“^(١) ونقدات الحاتمي في هذا المجلس لا تخرج عن أخذ المتنبي بالسرقات الشعرية وسوء التعبير في طائفة من الأبيات اشتهر أمرها بين الناقدين . وقد ختمت هذه الرسالة بفقرات تفصح عن سرور المهلبي ومعز الدولة بهزيمة المتنبي ، وهي كذلك دليل ما وصفنا به الحاتمي من الإسراف في التيه والخيلاء .

٦ — أما الرسالة الثانية فهي أعظم أثر وصلنا عن الحاتمي ، وهي رسالة ردّ فيها حكم المتنبي إلى أصولها من كلام أرسططاليس ، وقد وضع لها مقدمة صغيرة أراد أن يشعرنا بها أنه في نقده عف نزيه إذ حدثنا أنه يدافع عن المتنبي ”حين أتهم بسرقة ما في شعره من أغراض فلسفية ومعان منطقية“^(٢) لأن ذلك إن كان وقع من المتنبي ”عن فحص ونظر وبحث فقد أغرق في درس العلوم ، وإن يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة بالإيجاز والبلاغة“^(٣) وهو في الحالين على غاية من الفضل ، ونهاية من النبل

وقد رأيت بعد الاطلاع على هذه (الرسالة الحاتمية) أن صاحبنا نال من المتنبي باللفظ ما لم ينله بالعنف ، فقد أخذ يسرد كلمات أرسططاليس ثم يعقبها بشعر المتنبي ، فاستطاع بذلك أن يفضح المتنبي فضيحة شنعاء . وفي الحق أن هذا العمل كان غاية في اللؤم من جانب الحاتمي ، لأن حكم المتنبي تبدو فطرية لأقل وهلة ، وذلك سر سحرها في أنفس القراء ، ولكنها تبدو متكلفة مصنوعة حين تُقرن إلى ما نقلت عنه من كلام أرسططاليس ، وذلك مهم من النقد مسموم .

ومن أمثلة ذلك أن يقول المتنبي :

فان قليل الحب بالعقل صالح وإن كثير الحب بالجهل فاسد

وهو يلت مقبول ، ولكنه أقل قيمة من الحكمة التي أخذ عنها في قول أرسططاليس ”يسير من ضياء الحس خير من كثير من حفظ الحكمة“^(٣) .

وقول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتأني الطباع على الناقل
يسدو للقرأى متنافر المعنى بعض الشيء، ثم يفضح تنافره حين يُنظر الى أصله في قول
أرسططاليس " روم نقل الطباع من ردئ الأَطماع شديد الامتناع"^(١).

وقول المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم
أقل عمقا من قول أرسططاليس :
" من لم يدرك لنفسه فهو النائي عنك وإن كنت قريبا منه ، ومن يدرك لنفسك فأنت
قريب منه وإن تباعدت عنه "^(٢).

وقول المتنبي :

لعل عتبك محمود عواقبهُ وربما صحت الأجسام بالعلل
أقل وضوحا من قول أرسططاليس :
"وقد يفسد العضو لصلاح أعضائه كالكي والفصد للذين يفسدان الأعضاء لصلاح غيرها"^(٣)
وقول المتنبي :

وما التيه طيبي فيهمو غير أننى بغيض الى الجاهل المتعائل
أقل تعليلاً من قول أرسططاليس :
"إن الحكيم تريه الحكمة أن فوق علمه علما فهو يتواضع لتلك الزيادة، والجاهل يظن أنه
قد تناهى فيسقط بجهله فتمقتته النفوس"^(٤).

وقول المتنبي :

ومن يتفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر
منقول من قول أرسططاليس :

" من أفنى مدته في جمع المال خوف العدم فقد أسلم نفسه للعدم "^(٥).

والرسالة الحاتمية تقع في خمس عشرة صفحة نقد بها مؤلفها نحو عشرين ومائة بيت من شعر المتنبي، وهي كما أشرنا طعنة نجلاء يهون بجانبها كل ما لقي المتنبي من خصومه المسرفين .
 ٧ — ولكن لا يتوهم القارئ أن الحاتمي أصاب في كل ما رمى به المتنبي من سرقة معاني أرسططاليس، فقد يتفق الرجلان أحيانا في المعنى وينفرد المتنبي بجمال الصورة .
 نقول المتنبي :

إذا اعتاد الفتي خوض المنايا فأهون ما يميز به الوجودُ
 أروع بلا جدال من قول أرسططاليس :
 ”من آستمرت عليه الحوادث لم يَألم بحلوها“^(١) .
 وقول المتنبي :

إنعم ولَدَّ فلأُمور أواخرُ أبدا كما كانت لهن أوائلُ
 معنى عادي : فلا قيمة للادعاء بأنه مسروق من قول أرسططاليس :
 ”كل ما له أول تدعو الضرورة إلى أن له آخر“^(٢) .
 وقول المتنبي :

نحن بنو الموتى ، فما بالناس نعا فمالا بد من شربه
 أفعل في النفس من قول أرسططاليس :
 ”كره ما لا بد من كونه عجز في صحة العقل“^(٣) .

٨ — ولنا أن نأخذ على الحاتمي وقوفه عند أرسططاليس، كأن المتنبي لم يعرف فيلسوفا سواه، وهذا يشعر بأن أرسططاليس كان معروفا جدا عند العرب لذلك العهد، حتى أستطاع الحاتمي أن يرجع اليه طائفة كبيرة من حكم المتنبي، ويشعر كذلك بأن الشعراء كانوا يتصرفون فيما يقرءون تصرف الخبرة والعقل، فقد نظر المتنبي إلى قول أرسططاليس : ”ليس جمال الإنسان بِنافع له إذا كان ميت الحس من العلم“ .

ثم أداره في نفسه وما زال به حتى أغرقه في بلعة من الشعر حين قال :

لا يعجبني مضيًا حسن بزته وهل يروق دفينًا جودة الكفن

٩ — ولنا أن نلاحظ أن الرسالة الثانية للحاتمي أوفر أدبا من رسالته الأولى عن المتنبي، وقد يكون السبب في ذلك أنها كتبت بعد موت الشاعر: بدليل قوله في أول المراجعة "قال المتنبي رحمه الله !".

ولنا أن نلاحظ كذلك أن الحاتمي كتب رسالته الثانية وقد اكتمل وغلب عليه الوقار وفارقه الترق الذي ساد في رسالته الأولى، وحسبنا أن نقرأ قوله في مقدمة الرسالة الثانية :

"أما بعد فإن أحق ما أحسكت إليه نفوس أولى النظر، وانقادت إليه آراء أهل الفكر، وجلت الشبه عنه نواظر المتصفحين، وأمضت به عزائمها فلوب المعبرين : العدل، فانه سنخ^(١) العقل، وحليف النهى، وصنو الفهم، وعدو الهوى".

١٠ — هذا وكان الحاتمي متين الشعر، كما كان رصين النثر، وهو الذي يقول :

لي حبيب لو قيل لي ما تمنى ما تعديته ولو بالمنون
أشتهى أن أحل في كل جسم فأراه بلحظ تلك العيون

وهو القائل في قصر الليل :

يارب ليل مرور خلتها قصرا كعارض البرق في أفق الدجى برقاً
قد كاد يعثر أولاه بآخره وكاد يسبق منه بخره الشفقا

وهو القائل في وصف الثريا :

وليل أقنأ فيه نعمل كأسنا إلى أن بدا للصبح في الليل عسكراً
ونجم الثريا في السماء كأنه على حلة زرقاء جيبٌ مدنرٌ

ومات رحمه الله سنة ٣٨٨ وكان أبوه كذلك شاعراً أثبت له صاحب اليتيمه عدة مقطوعات فيلرجع إليها القارئ هناك^(٢).

١١ - أبو عبد الله المرزباني

١ - المرزباني هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد . وأصله من خراسان — كما ذكر ابن النديم^(١) — وهو من بيت رياسة ومجد : فقد كان أبوه نائب صاحب خراسان بالباب ببغداد . وقد نسب الى بعض أجداده وكان اسمه المرزبان . وهو اسم لا يطلق عند العجم إلا على الرجل المقدر : العظيم القدر . ومعناه بالعربية حافظ الحد^(٢) .

ولد في بغداد سنة ٢٩٧ وتوفي سنة ٣٨٤ وقيل سنة ٣٧٨

وليس لدينا من أخبار المرزباني إلا تُنف يسيرة، وأظهر أخباره أنه كان رجلاً غنيا كريما يُفضل على أساتذته وتلاميذه، وكانت داره مأوى لأهل العلم والأدب يبيتون فيها على الرحب والسعة حين يشاءون . ولم يكن يؤخذ عليه من الهفوات إلا إدمان الشراب . وكان من عادته في ذلك أن يضع بين يديه زجاجة خمر فلا يزال يشرب ويكتب وهو مقسم الفكر والاحساس بين الواقع والخيال . وقد شعر رحمه الله بخطر ذلك على عقله وصحته وظهر أثر تملله حين سأله عضد الدولة مرة عن حاله فقد أجاب « كيف حال من هو بين قارورتين ؟! » يعني قارورة الخمر وقارورة الحمر .

٢ - وكان في حياته العقلية يؤثر مذهب المعتزلة : فقد صنف في أخبارهم كتابا كبيرا . وكان المعتزلة في تلك الأيام يقودون الحركة الفكرية والأدبية في الأقطار الإسلامية . وقد أخذ عليه سامحه الله شيء من التسامح في رواية الحديث .

وكان في جملة حاله معروفاً بصدق اللهجة وسعة المعرفة وكثرة السماع . وكان معاصروه يرونه من محاسن الدنيا، ومنهم من يقدمه على الجاحظ . ولعل ذلك هو السبب في تحامل بعض المغرضين عليه كأبي حيان التوحيدي الذي كان يقارنه بابن شاذان وابن الخلال ، ممن كان

(١) الفهرست ص ١٩٠ طبع القاهرة . (٢) ابن خلكان ص ٣٢٧ ج ٢ .

لهم جمع ورواية وليس لهم فيما جمعه تقط ولا إعجام ولا إسراج ولا إلحام . ولو بقيت كتب المرزبانى كلها أو جلها لاستطعنا أن نزن ما كان له من فكر وعقل وأسلوب ، ولكن أكثرها ضاع ولم يبق منها إلا التزر القليل . غير أننا نجد ابن النديم مفتونا به أشد الفتون . وابن النديم حجة في تقدير المصنفين والكتّاب والأخباريين ، وقد حدثنا أنه رأى كتاب المرزبانى عن الشعراء المشهورين والمكثرين من شعراء المحدثين . وقد أثبت في هذا الكتاب مختار أشعارهم وبين أنسابهم وأزمانهم . وأن له كتابا آخر اسمه «المفيد» يشتمل الفصل الأول منه على أخبار المقلين من شعراء الجاهلية والاسلام وأخبار من غلبت عليه كنية منهم أو شهر بكنية ابنه أو عرف بأمه أو نسب إلى جدّه أو عزى إلى مواليه وما جانس هذه الأحوال . ويشتمل الفصل الثانى على ما روى من نعوت الشعراء وعيوبهم في أجسامهم وصورهم كالسودان ، والعور ، والعميان والعمش والبرصان ، وسائر ما يؤثّر في الجسد من شعر الرأس إلى القدمين عضو عضوا . ويشتمل الفصل الثالث على مذاهب الشعراء في دياناتهم كالشيعة وأهل الكلام والخوارج والمتهمين واليهود والنصارى ومن جرى مجرىهم . ويشتمل الفصل الأخير على من ترك قول الشعر في الجاهلية تكبرا وفي الاسلام تدنبا ، ومن ترك المديح ترفعا ، والهجاء تكrema ، والغزل تعففا ، ومن أنقذ شعره في معنى واحد كالسيد بن محمد الحميرى والعباس ابن الأحنف ومن جرى مجراهما . وله كتاب آخر اسمه «الرياض» ذكر فيه أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وفيه ذكر الحب وما يتشعب عنه وذكر ابتدائه وأتمائه وما ذكر أهل اللغة من أسمائه وأجناسه واشتقاق تلك الأسماء بشواهد من أشعار الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين .

٣ — وليس المهم أن نلخص وصف ابن النديم لمؤلفات المرزبانى ففى مقدور القارئ أن يرجع اليه فى الفهرست ، ولكن يهمنى أن نشير إلى أن مجموعة مؤلفات المرزبانى تدور حول نقطة واحدة هى تنظيم الثقافة الأدبية .

فقد عُنى الرجل بأن يجمع أخبار الشعراء ويرتبها ترتيباً قد يعجز عنه أدباء اليوم فيضع
للباهلين كتاباً، وللحديثين كتاباً، وعُنى كذلك بأن يضع مؤلفات مستقلة في أكثر الشؤون
الأدبية ككتابه عما وصف به العرب الصيف والشتاء والحز والبرد والغيوم والبرق والرياح
والأمطار والرواء والاستسقاء وما دخل في جملتها من أوصاف الربيع والخريف . وكتبه عن الزهد
والزهاد والحجاة والحجاب والعدل والسيرة وأخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من
مدح وذم، وكتابه عن الأنوار والثمار الذي ساق فيه طرفاً مما قيل في الورد والنجس وجميع
الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار . وكتابه في نسخ العهود إلى القضاة
وكتابه عن أشعار النساء، الخ .

ومن المدهش أنه ألف كتاباً في أخبار الشعراء سماه "المعجم" تحدث فيه عن نحو خمسة
آلاف شاعر وأثبت فيه أبياتاً لكل من تحدث عنهم من الشعراء . فمن الذي يعرف اليوم هذا
المقدار من أسماء الشعراء مع أننا اجتزنا من تاريخ الأدب نحو خمسة عشر قرناً وكان المرزباني
لم يحتز منه غير خمسة قرون ؟

ومما يوضح ما أشرنا إليه من عناية ذلك الرجل بتنظيم الثقافة الأدبية أنه كان ألف كتاباً
سماه "تلقيح العقول" في أكثر من مائة باب جمع فيه كل ما يهم المتأدين الاطلاع عليه
مما قيل عن العلم والعقل والأدب وما جانس ذلك^(١) .

٤ — ولم يطبع من مؤلفات المرزباني — فيما علمنا — غير كتاب الموشح الذي نشرته جمعية
نشر الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ وهو كتاب جيد حدثنا المؤلف في مقدمته أنه
اهتم بذكر ما أنكر على الشعراء في أشعارهم من العيوب التي سبيل أهل عصره ومن بعدهم أن
يحتنبوها ويعدلوا عنها . وأنه أودع كتابه ما سهل وجوده وقرب متناوله من ذكر عيوب
الشعراء التي نبه عليها أهل العلم وأوضحوا الغلط فيها من اللحن والسناد والإبطاء والإقواء والإكفاء
والتضمين والكسر والإحالة والتناقض واختلاف اللفظ وهلهلة النسخ وغير ذلك من سائر
ما عيب على الشعراء قديمهم ومحدثهم في أشعارهم خاصة، سوى عيوبهم في أنفسهم وأجسامهم

وأخلاقهم وطبائعهم وأنسابهم ودياناتهم، وغير هذه الخصال من معاييرهم التي استقصاها في كتابه الملقب "بالمفيد"، وسوى سرقات معاني الشعر التي أتى بكثير منها في كتابه الذي تحدث فيه عن فضائل الشعر ووصف محاسنه ومنافعه ومضاره وأوزانه وعيوبه ونعت أجناسه وضرره وعروضه وأعيانه ومختاره وتأديب قائله ومنشديه والبيان عن منحوه ومسروقه، وما يتصل بذلك من مختلف الأغراض^(١).

٥ - وقد راجعنا كتاب الموشح عدّة مرات فلم نظفر للمؤلف بما يميزه عن غيره من مصنفى الروايات والأخبار. وإن كنا نعترف بأن الرجل أجاد الجمع والتصنيف وقدم للقارئ معارض مختلفة مما أخذ على الشعراء. وأكثر ما أثبت لا نجده اليوم في غير كتابه. وإن كنا نعثر على أصوله مبعثرة هنا وهناك. فأت حين نطلع على كتاب الموشح ترى مواد معروفة لك مستأنسة إليك بطول ما صادفتها في شتى المطالعات. ولكنك لو أردت أن تظفر بمجموعة ما قاله النقاد القدماء عن الأخطل أو جرير مثلاً لما استطعت أن تجد لها منظمة على نحو ما تجدها في هذا الكتاب. على أن المؤلف كثيراً ما يظهر شخصيته فيعرف رأيه ومذهبه في النقد كقوله مثلاً في نقد قول الطائي :

وقد سدّ مندوحة القاصصا ً منهم وأمسك بالناقصاء

"ولم نعب من هذه الألفاظ شيئاً غير أنها من الغريب المصدود عنه. وليس يحسن من المحدثين استعمالها : لأنها لا تجاور بأثرها ولا تتبع أشكالها. فكأنها تشكو الغربة في كلامهم"^(٢).

ومعنى هذا أن الغريب الوحشي قد يحسن استعماله إذا أطرّد في كلام متأبد غريب. أما في الكلام السلس فاستعماله غير مقبول. وهو يوافق بعض الموافقة ما يراه الجاحظ من أن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوق رطانة السوق. والتفاهم عند المرزباني والجاحظ هو الأساس في اختيار الألفاظ، إذ كان الناس لا يقبلون الألفاظ أو يرفضونها إلا موصولة بما يالفون.

٦ - ولا يخلو المرزباني - على فضله - من تحامل : فقد وأيته يفض من قيمة مختارات أبي تمام إذ يقول :

”وللطائي سرقات كثيرة أحسن في بعضها وأخطأ في بعضها . ولنا نظرت في الكتاب الذي ألفه في اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر احسان الشعراء ، وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره وجعل بعضه علة يرجع إليها في وقت حاجته ورجاء أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ويقنعوا باختياره لم فتغبي عليهم سرقاته . ولا يعذر الشاعر في سرقاته حتى يزيد في إضاعة المعنى ، أو يأتي بأجزل من الكلام الأول ، أو يسئح له بذلك معنى يفضح به ما يتقدمه ولا يفتضح به ، وينظر إلى ما قصده نظر مستغن عنه لافقير إليه“

ففي هذه الفقرة تجن شديد على أبي تمام وإزاء بإحسانه في تأليف مختاراته . وما أحسب الخاطر الذي مر ببال المرزباني مر ببال ناقد شريف القصد فهو يرى أن أبا تمام قصر اختياره على الأشعار التي لم يسرق منها ، وأنه طوى الأشعار التي يرجو أن يغير عليها . وأنه أراد أن يصرف المتأدين بمختاراته عن الرجوع إلى الأصول التي سرق منها ما استجيد من شعره

ولا أدري كيف يصح هذا من المرزباني إلا أن أرجح أنه كان من خصوم أبي تمام . وقد كان أبو تمام ابتلى في حياته وبعد مماته بمعارضة شديدة كادت تقتلع مجده من جذوره وترمى به في هاوية العفاء . وسبب ذلك أن أبا تمام ظفر بشهرة قوية أخلت مئات الشعراء . والشهرة القوية تخلق الخصوم خلقاً وترمى صاحبها بعداوات مسمومة لم يجترح في خلقها إثماً ولا جناية ، حتى صم للمرزباني على نزاهته أن يتهمة بسوء النية في تأليف المختارات مع أن في الحماسة بابين لم نجد لهما مثيلاً في مجموعة أدبية وهما باب المرائي و باب النسيب .

٧ - ويغلب على المرزباني أن يسوق المأخذ بدون أن يتعقبها بنقد أو تمحيص ، وأحياناً يضيف إليها كلمة صغيرة تعين رأيه . من ذلك أنه نقل الكلمة الآتية بسندها عن بعض معاصريه :

”دخلت على أبي تمام الطائي وقد عمل شعرا لم أسمع أحسن منه وفي الأبيات بيت واحد ليس كسائرهما . فعلم أني قد وقفت على البيت فقلت : لو أسقطت هذا البيت ! فضحك وقال : أترك أعلم بهذا مني ؟ إنما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة كلهم أديب جميل متقدم ومنهم واحد قبيح متخلف فهو يعرف أمره ويرى مكانه ولا يشتمى أن يموت . ولهذا العلة ما وقع مثل هذا في أشعار الناس^(١)“ .

ونقل بعد ذلك هذه الكلمة . ”قال مثقال الشاعر : قلت لأبي تمام تقول الشعر الجيد ثم تقول البيت الرديء ! فقال : مثل هذا مثل رجل له عشرة بنين منهم واحد أعشى فلا يجب أن يموت“ وفي التعقيب على هاتين الفقرتين يكتفى المرزباني بأن يقول . ”وهذه حجة ضعيفة حدا^(١)“ .

وأحيانا قليلة يبسط القول بعض الشيء في النقد والمقابلة كما فعل في نقد قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا آنجلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ

فقد بين أن أفضل منه قول الطرماح بن حكيم :

بلى إن للعينين في الصبح راحة لطرهما طرفيهما كل مطرح

ثم قال ”فأحسن في قوله وأجمل وأتى بحق لا يدفع ، وبين عن الفرق بين ليله ونهاره ، وإنما أجمع الشعراء على ذلك — أي حضور الهم بالليل وذهابه بالنهار — من تضاعف بلائهم بالليل وشدة كلفهم لقلة المساعد وفقد الحبيب وتقييد اللفظ عن أقصى مرامي النظر^(٢) الذي لا بد أن يؤدي إلى القاب بتأمله سببا يخفف عنه أو يغلب عليه فينسى ما سواه“ . وللرزباني ملاحظات صغيرة متفرقة قد لا يتنبه إليها القارئ المتصفح ويستجدها المتأمل كقوله في التعقيب على قول أبي العتاهية :

حلاوة عيشك ممزوجة فما تأكل الشهد إلا بسم

فالمعنى صحيح لأن الشاعر جعله مثلاً لبؤس الدنيا الممازج لتعيمها . ولكن يلاحظ المرزباني أن العبارة غير مرضية : لأننا لم نر أحداً أكل شهداً بسم . وأجود من هذا البيت لفظاً وأصح معنى قول ابن الرومي :

وهل خُلة معسولة الطعم تجتنى من البيض إلا حيث وائش يكيدها
مع الواصل الواشي وهل تجتنى يد جنى النحل إلا حيث نحل يذودها^(١)

وتلك ملاحظته دقيقة وهي تذكر بما نقله عن أحد معاصريه وقد سأل أبا تمام : أخبرني عن قولك :

كأن بني نهان يوم وفاته نجوم سماء خرّ من بينها البدر

أردت أن تصف حسن حالهم بعده أو سوء حالهم؟ فأجاب أبو تمام : لا والله إلا سوء حالهم لأن قمرهم قد ذهب . فقال المعترض : والله ما تكون الكواكب أحسن ما تكون إلا إذا لم يكن معها قمر^(٢) .

٨ — وقد أشار المرزباني في غير موضع إلى وحدة البيت فقد تحدّث عما أخذ على امرئ القيس في قوله يصف الليل :

فقلت له لما تمطى بصابه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فانه لم يشرح ما أراد بالبيت الأول إلا في البيت الثاني . وهذا عيب عند العرب لأن خير الشعر ما لم يحتج البيت منه إلى بيت آخر . وخير الأبيات ما استغنى بعض أجزائه ببعض إلى وصول القافية كقول الشاعر :

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقية الرجل

فان قوله (الله أنجح ما طلبت به) كلام مستغن بنفسه وكذلك باقي البيت . على أن في هذا البيت واو عطف عطفت جملة على جملة وما ليس فيه واو عطف أبلغ . وأجود من هذا قول النابغة الذبياني في اعتذاره إلى النعمان :

ولست بمستيق أخا لا نلمسه على شعث، أى الرجال المهذب

فكلامه فى أول البيت مستغن بنفسه وكذلك آخره حتى لو ابتدأ مبتدئ فقال (أى الرجال المهذب) لا اعتذار أو غيره لأتى بكلام مستوف لا يحتاج الى سواء .

وقد أشار الجاحظ فى بعض كتبه الى هذه المسئلة . ومن الخير أن ننسبه للقارئ الى أن وحدة البيت لا تنافى وحدة القصيدة، وإن ظن ناس غير ذلك، فإن الوحدة فى البيت يراد بها اتساق النغم والألحان بحيث يصبح الوقف فى نهاية كل بيت، ولهذا قيمة فى الرنة الموسيقية التى يحرص عليها شعراء العرب أشد الحرص . أما وحدة القصيدة فيراد بها وحدة الغرض، وذلك أن يقدر الشاعر لنفسه صورة شعرية يرسمها رويدا رويدا فى نظام وانسجام الى أن يتمها بتمام القصيدة .

ولأجل أن نبين للقارئ أن وحدة البيت ضرورية جدا لحفظ الموسيقى الشعرية ننقل له قطعة لابی العتاهية خلت من وحدة البيت على نحو ما يخلو منها الشعر الفرنسى مثلا، وانتأمل كيف يقول :

ياذا الذى فى الحب يلجى أما	وانته لو كلفت منه كما
كلفت من حب رخم لما	لمت على الحب فذرني وما
ألقى فأنى لست أدري بما	بليت إلا أننى بينما
أنا بباب القصر فى بعض ما	أطوف فى قصرهم إذ رمى
قلبي غزال بسهام فما	أخطأ بها قلبي، ولعكنا
سهماه عينان له كلما	أراد قتلى بهما سلما

وهذا النوع من الشعر كان يسميه القدماء "المضمن" وهو عندهم من الشعر المعيب . لأن خير الشعر فى حكمهم ما قام بنفسه وكفى بعضه دون بعض . ولا نزال نحن نتبع أسلافنا فيما اطمأنوا إليه من خصائص القوافى والأوزان لأن للإلف أثرا شديدا فى تكوين الذوق . والشعر من الفنون التى تتحكم فى قدرها الأذواق .

٩ - وفي الموشع عبارات نقدية تكاد تبلغ الغاية في دقة الوصف ولينأمل القارئ ما نقله المؤلف في تحديد الشعر الجيد عن محمد بن يزيد النحوي :

” أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه . وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ونبه فيه بفطنته على ما يخفى على غيره وساقه برصف قوى واختصار قريب وعدل فيه عن الإفراط“.

وهذا كلام دقيق وإن كنا لا نوافق ابن يزيد في استهجانه قول بعضهم في النحافة :

فلو أن ما أبقيت منى معلق يعود ثمام ما تأود عودها

وقال الآخر يصف سرعة ناقته :

* ويمنعها من أن تطير زمامها *

لأن في الإزراء بمنزل هذه الأخيصة إزراء بمواهب الذكاء . فهناك أخيلة شعرية تجافى الحقائق في كثير من الأحيان . ولكنها تظل مع ذلك مقبولة يهش لها الذوق لدلائلها على ما وهب الشاعر من بارع الذكاء .

وقد استنكر النقاد قول المتنبي :

كفى يجسمى نحولا أنني رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترني

وعدوه غلوا غير مقبول مع أننا قد نستطيع قول بعض المولدين :

عادني ممرضى فلم ير مني فوق فرش السقام شيئا يراه

قال لي أين أنت قلت التمسني فبكى حين لم تجدني يدها

ولسنا نستطيع هذا لصحة معناه وإنما نستطيعه للصورة التي قدمها الشاعر في وصف

آثار النحول .

١٠ - والمرزباني يهتم بتقييد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء وتظهر في ثنايا كلامه نزعة الحقد على المشاهير وإن اجتهد في إخفاء ذلك وحاول أن يصبغ كلامه بصبغة البحث الصرف فقد حدثنا أن أهاجى البحتري للخلفاء والملوك أشبه بهجاء سفلة الناس ورعاعهم وأنها تجمع بين

سخافة اللفظ وهلهلة النسج والبعد من الصواب ، وأنه قد هجأ نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم منهم خليفتان : هما المتصر والمستعين . وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من أعظم الكتاب والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وأن حاله في ذلك تنبئ عن سوء العهد وخبث الطوية ، وأنه نقل نحواً من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حفظه منهم عليها الى مدح غيرهم وأما أسماء من مدحهم أولاً مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه .

ويقول المرزبانى فى التعقيب على هذه المثالب :

” ولم أذكر حاله فى ذلك على طريق التحامل مع اعتقادهى فضله وتقديمه ولكنى أحببت أن أبين أمره لمن لعله انستر عنه وحسبنا الله ونعم الوكيل^(١) “ .

وظاهر هذه الكلمة نزيه . ولكنها تمثل شهوة خفية طالما التبس أمرها على الناقدين . على أن المرزبانى مشكور على أى حال : فمن أمثال هذه الهفوات تنكشف جوانب من النفس الإنسانية . والناقد مسئول عن كشف ما يتعذر كشفه على الجمهور من أخلاق الشعراء والكتاب والباحثين .

ومن يدرى ! ففعل الناس يعيشون فى رذائلهم أضعاف ما يعيشون فى فضائلهم ، ولست أريد بهذا كية الحياة ، وإنما أريد روحها وسرها ، فإن النفس لاتجانب الجادة السوية إلا وهى نائرة . والنفس فى لحظات الثورة تحيا حيوات طويلة قوية يصغر بجانبها ما تقضيه فى هدوء ووقار من طوال السنين . ولو أن المرزبانى قدّر أنه قد يحىء من رجال الأخلاق من يعلى هفوات البحترى بمثل ما عللنا لرأى أنه ليس مما يشفى النفس أن يبين أمر البحترى لمن لعله انستر عنه ! وما الذى كان يقع لو ظلت صفائر البحترى مستورة وظفر بلسان صدق فى الآخرين ؟

١١ — هذا وقد كنا نحب أن نطيل القول فى نقد ما اشتمل عليه كتاب الموشح ، وخاصة ما وقع بين شعراء العصر العباسى وبين رجال اللغة كالأصمعى وابن الأعرابى ، فإن ذلك

يمثل النزاع بين القديم والحديث ، وتلك إحدى المشاكل التي تتجذد على اختلاف العصور .

وفيما رواه المرزباني طائفة من الطرف والفكاهات كانت تحسن روايتها في هذا الكتاب ، ولما نرى الاكتفاء بما أسلفناه راجين أن يكون فيه كشف عن منهج المرزباني في إحياء الثقافة الأدبية ، ونشر ما تداوله الناقدون من هفوات الشعراء .
والموشح مطبوع يستطيع الرجوع إليه من يريد المزيد ^(١) .

(١) من أطرف ما نقل المرزباني من أخبار النزاع بين اللغويين والشعراء ما جاء في ص ٢٩٦ «حدث العباس بن ميمون قال : سمعت الأصمعي يقول : «حضرنا مأدبة وأبو محرز خلف الأحمر وابن مناذر معنا فقال له ابن مناذر : يا أبا محرز ! إن يكن امرؤ القيس والتابفة وزهير ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعري الى أشعارهم : قال : فأخذ صحيفة مملوءة مرقا فرمى بها عليه !»